AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01141 6116

03-B1634
Pvt 2-4-03

Hona

سامى الكيالى

DS
39
K3
1943

الفكر العربى

بين ماضيه وحاضره

ومباحث عن

ابن خلدون والعرب . كيف نعمل على إحياء ثقافتنا العربية القديمة .
البلديات عند العرب وطرق ممارستها فى العصور الاسلامية الزاهرة .
مصر والوحدة العربية . الشباب العربى والنزعات التجديدية . إيمان .

ملتزم طبعه ونشره
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
١٩٤٣

953
K184

٩٥٣
ل س . ف

23058

الاهـــداء

إلى كل مفكر حر

إلى شباب العرب

إلى الناشئة المعقود عليها الامل فى البعث القومى

أهدى هذه الصفحات .

سامى الكيالى

فهرس

الفكر العربى بين ماضيه وحاضره ١

ابن خلدون والعرب ١٣

كيف نعمل على إحياء ثقافتنا العربية القديمة ؟ ٢٧

البلديات عند العرب وطرق ممارستها فى العصور الاسلامية الزاهرة ٤١

مصر والوحدة العربية ٥٧

الشباب العربى والنزعات التجديدية ٧٥

إيمان ٩١

مقدمة

بقلم الدكتور طه حسين بك

فى شهر ابريل من سنة ١٩٢٦ — إن صدقتنى الذاكرة — كنت أسعى مع زوجى مقبلين إلى مكتب البريد فى حلب أو منصرفين عنه لا أدرى ، وإذا شاب يعبر إلينا الشارع عدواً حتى إذا بلغنا سأل ثم حيا ثم عرف نفسه ، وإذا هو سامى الكيالى .

رأى صورتى فى بعض الصحف وقرأ ما كنت أنشر من الكتب والمقالات ، فلما رآنى فى وطنه لم يستطع إلاّ أن يكون عربياً كريماً . فلقى ضيفه أحسن لقاء ، وصاحبه خير مصاحبة ، ولم يفارقه حتى ودعه فى القطار حين أزمع العودة إلى بيروت . وكان سامى الكيالى حفياً بضيفه كما تعود العرب أن يكونوا دائماً ، ولكنه كان مع ذلك حفياً بمدينته يحبها أشد الحب ويعجب بها أعظم الإعجاب ويريد أن يظهر ضيفه على كل ما فيها من المعاهد الحديثة والمعالم القديمة . وكان فى أثناء هذا كله يتحدث عن علم ، ويتحدث عن حب ، ويتحدث عن إعجاب بالماضى وعن ثقة بالمستقبل ، فاستقرت منه فى نفسى صورة محببة إلىّ أثيرة عندى . ولكنى لم أكد أتحدث إليه ساعة أو بعض ساعة حتى

عرفت فيه خصلة أخرى هى التى وصلت ما بيننا من المودة وعطفت قلب كل منا على صاحبه . فقد كان مؤثراً للتجديد ، حريصاً مع ذلك على القديم ، معتدلاً فى كلا الأمرين اعتدالاً يلائم ما اخترت لنفسى من مذهب وما رسمت لها من منهج . وكان على ذلك شديد التتبع لما يكتب فى مصر ، يقرؤه مستقصياً ، ويفكر فيه ناقداً شديد التتبع لما يكتب فى الشرق العربى كله ، كثير الموازنة بين ما يقرأ . وكان يتحدث إلىّ عن كتّابنا وشعرائنا ، وعما كان يثور بيننا من الخصومة فى الأدب والسياسة ، فإذا هو يعلم من ذلك مثل ما أعلم . ثم يتحدث إلىّ عن كتّاب الشرق العربى وشعرائه ، وما كان يثور بينهم من جدل أو خلاف ، فإذا هو يعلم من ذلك أكثر مما أعلم . وعدت إلى مصر والصورة التى استقرت فى نفسى من هذا الأديب هى خير ما عدت به من هذا القطر العزيز . ثم اتصلت بيننا المودة فالتقينا وافترقنا ، وكتب كل منا إلى صاحبه ، وما هى إلا أن يصبح سامى الكيالى كاتباً معروفاً وناشراً ممتازاً بفضل هـذه المجلة التى أصدرها « مجلة الحديث » التى جعلها ديواناً دقيقاً للتفكير العربى منذ أعقاب الحرب الماضية إلى الآن . ولم تقف الصداقة على ما استؤنف بينه وبينى من الود ، ولـكنه كان يتلقى أدباءنا المصريين بمثل ما تلقانى به من الكرم ، وكان يزور مصر فنشغف بلقائه والاستماع منه والتحدث إليه . وإذا هو صديق لأدبائنا جميعاً يعرف أكثرهم معرفة قريبة جداً ، ويعرف بعضهم

من آثاره المختلفة ، وإذا هو يعرف من حياتنا الأدبية دقائقها وأسرارها ويتحدث عنها حديث المستقصى لما ظهر منها وما بطن . وإذا تحدث الناس عنه الآن فإنما يتحدثون عن كاتب وقف جهده - أو وقف صفوة جهده - على الاستقصاء والاستقراء ومراقبة التيارات الفكرية فى الشرق العربى وتسجيل الاتجاهات التى تتجهها هذه التيارات . وهذه الفصول التى يسعدنى أن أقدمها إلى القراء فى مصر ليست إلا مظهراً من مظاهر هذه العناية الخاصة ، وهى لن تعرّف سامى الكيالى إلى قرائنا لأنهم يعرفونه من قبل أن تذاع فيهم ، ولن تحببه إليهم لأنهم يحبونه منذ قرءوا آثاره المختلفة فيما نشر من كتب وما أذاع من فصول . وهذه الكلمة التى أقدم بها هذه الفصول ليست فى حقيقة الأمر إلا تحية صادقة من كاتب مصرى إلى أديب صديق للأدباء المصريين جميعاً . وأنا أقدم إليه هذه التحية لأن كتابه هذا يطبع وينشر فى بلدنا فهى أشبه بأن تكون ترحيباً به فى زيارة تفضل علينا بها من بعد .

ويزيدنى اغتباطاً بظهور هذا الكتاب فى مصر الآن أنه يظهر فى نفس الوقت الذى يشتد فيه الاتصال بين الأقطار العربية ، وتقوى فيه فكرة التعاون والتقارب فى الثقافة والتفكير ، ونجنى فيه ثماراً طالما جاهدنا فى سبيلها ، وطالما تمنينا أن يتاح لنا اجتناؤها فى يوم من الأيام . فقد كان سامى الكيالى يُتهم كما كنت أنا أيضاً أُتهم

بالإغراق فى التجديد ، والانحراف عن العروبة وعما ينبغى لأهلها من التضامن والتعاون . والله يشهد ما أحب العروبة أحد كما أحببناها ، ولا حرص على قوة العروبة ونهضتها أحد كما حرصنا عليها ، ولا جاهد فى ذات العروبة أحد بالقلم واللسان كما جاهدنا نحن فى ذاتها . ولكننا كنا وما زلنا نكره التكثر والتزيد ، ونمضى فى طريقنا غير حافلين بما نلقى من عقاب ، ولا آبهين إلا بأن ترضى ضمائرنا وتطمئن قلوبنا إلى ما نحن ماضون فيه أو مقدمون عليه .

وقد أراد الله أن تنجح جهودنا وجهود أصدقائنا الذين عملوا فى توجيه هذه النهضة الفكرية المعاصرة ، فأصبح التجديد الذى كنا نلام فيه قليلاً لا يرضى طموح الشباب ولا يرضينا ، وأصبح التعاون الثقافى والتضامن فى الحياة العقلية هو الأساس الصالح المتين لكل ما نأمله من تقارب فى منافع السياسة والاقتصاد ، وأصبحت الطريق ممهدة للذين يريدون أن يسلكوها ، وما أشك فى أنهم كثيرون ، وما أشك فى أننا سنكون بينهم ، بل فى طليعتهم ، ما امتدت لنا أسباب الحياة والنشاط .

طه حسين

الفكر العربي

بين ماضيه وحاضره

« . . . إنه في القرون التي سبقت ظهور محمد كان « الفكر العربي » أشبه بالنار تحت الرماد . فلما انكشف عنه الرماد بالفتح الاسلامي لمع لمعاناً لم يعهد أن فاقه فيه إلا الفكر اليوناني . وهو في أسنى أدواره . فجاء الفكر العربي بشكل جديد ، وبقوة جديدة ، وعالج علاجاً شريفاً تنمية العلوم الصحيحة بنظير ما عالج اليونانيون . ولقد كان اليوناني أباً للعلم فجاء العربي وحلّ محله في هذه الأبوة . وكانت طريقة العربي هي أن ينشد الحقيقة بكل استقامة وبكل بساطة ، وأن يجلّيها بكل وضوح وبكل تدقيق ، غير تارك منها شيئاً في ظل الإبهام . فهذه الخاصة التي جاءتنا نحن الأوربيين من اليونانيين وهي « نشدان الحقيقة » إنما جاءتنا عن طريق العرب ، ولم تسقط إلى أهل هذا العصر من اليونانيين »

ويلز

خرج الفكر العربي من غمر الصحراء إلى معترك تتصارع فيه الآراء والمذاهب ، وكان — برغم فتوته — قوى الحيوية ، قوى الوهج ، وافر الذكاء . . فلم ينزل إلى الميدان ، قبل أن يأخذ للأمر عدته . ، ووقف عند هذا الإشعاع الذى نزل على النبي الكريم محمد بن عبد الله ، فكان يفيء إلى ظلاله ، ويقبس من أنواره ، وما زال يدرج حتى شبّ ، وإذا به يتطلع إلى المشرق وإلى المغرب ، كسائح غريب يشوقه أن يرى كل شيء . . . وإذا هو إزاء ظلال جميلة ، ومفاتن بديعة ، ونقوش غريبة ، وأصداء حلوة عذبة مختلفة النغمات . نعم ، نشأ الفكر العربي أول نشأته في صحراوات جزيرة العرب يقول الشعر ويرسل الحكمة ويتأمل الأفلاك والنجوم ، وكان إلى شاعريته هذه ينحدر من الروحانيات إلى الماديات فيتجر مع مَنْ حوله من الأمم ، كل أدواته هذه المعلومات التى تفرضها مواضعات الحياة وظاهرات الكون ، يعيش في أفق ضيّق وإطار محدود ، يهزج ويكرر نغماً واحداً ذا إيقاع راتب ، ويحيا حياة ملولة متشابهة الصور ، متشابهة الألوان . ولكن هل في وسع هذا المارد العجيب أن يعيش هذه الحياة المحدودة الآفاق وهو كتلةٌ من عصب ووقدة من بركان ؟ . كلا . . وكأنما الأقدار لحظت فيه هذه الحيوية العجيبة فأرادت أن

تنفّس عن كبته الخانق ، فما كاد العرب يفتتحون الدنيا القديمة بمعجزتهم الكبرى حتى أطلّ « الفكر العربي » من كُوّته المعتمة على دنيا جديدة تشع بألوان الثقافات وفنون الحضارات .

كانت مائدة الفكر ، في تلكم الفترة من الزمن ، تحتوى ثلاثة ألوانٍ من أشهى ما طبخه الذهن الإنساني : لون الهند ، ولون الفرس ، ولون الإغريق ، وكان بديهياً أن يقدم على تناول هذه الأطعمة الشهية . . ولكن كيف ؟ أتسيغها معدته ؟ أعنده هذه القابلية لهضم هذا الطعام الغريب ؟ . . لقد تساءل عن ذلك . . ومن حقه أن يتساءل . أوَليس في عصرنا قوم ينكرون ما أنتجه الفكر الغربي من غذاءٍ شهىّ ، ويعدّه فريق رجساً من عمل الشيطان !

وقف العربي يتطلّع إلى هذه الأطعمة الغريبة ، أو إلى هذه الألوان ذات الأصباغ المتنافرة المغلقة على فهمه . . وكان لا بدّ له من ساحر يفك رموزها ويفتح له مغاليقها . . فمن أين له بالسحرة ؟ . .

كان الفكر في بلاد اليونان يقاسي ألواناً مرة من إرهاق الطغاة — وهذه هى قصة الفكر في أكثر العصور — وكان لا بدّ للمفكرين ، بعد أن أمر الإمبراطور يوسنيانوس بإغلاق

مدارس أثينا والإسكندرية ، من ملجأٍ أمين يأوون إليه ، فاتجهوا نحو فارس ، وأخذوا طريقهم إلى شمالىّ ما بين النهرين ، حيث أسّسوا مدارسهم ثانية ، وأخذوا ينشرون رسالتهم العلمية في جوّ طليق من حرية البحث والتفكير . وكانت هذه المناطق من جملة البلدان التى افتتحها العرب ، وكان بديهيًّا أن يعنى العرب بمعرفة هذه المذاهب الفلسفية التى يدين بها المفكرون . ويكاد يتفق جميع مؤرخى الإفرنج والعرب على أن سنة مئة وثلاث وثلاثين هى « بدء عهد جديد في تاريخ العقلية العربية ، إذ أخذ أبناؤها يبدون حظًّا غير قليل من الاشتراك في تلقي الفلسفة والعلم ، وبدأت التراجم والتعليقات تظهر في اللغة العربية ، وكوّنت أول مدرسة صحيحة للترجمة من حنين بن إسحٰق وصحبه ، تلك المدرسة التى أسسها في بغداد الخليفة المأمون لنقل المتون اليونانية في الفلسفة إلى العلوم العربية »

في هذه الفترة ، أى من عهد المأمون ، ومن عهد ابن المقفع قبله ، بدأ الذهن العربي يتطلع إلى شتى الآفاق ، بحيث لم يمض ثمانون عاماً على سقوط دولة بنى أمية في الشام إلاّ وكان بين أيدى العرب مترجمات لأكثر ما كتب أرسطوطاليس ولبعض تآليف أفلاطون ولتعليقات للّذين اشتهروا من زعماء الأفلاطونية

الجديدة ؛ ثم الجزء الأكبر من كتب جالينوس ، وأجزاء أخر نقلت عن كتب الأطباء ومن علقوا عليها ، وطائفة غيرها من كتب حكماء اليونان وكتب الهند وفارس .

إزاء هذا الفيض العلمى الجديد وقف الفكر العربي ، ابن الصحراء ، هذا الجنيّ المارد الذى اعتاد أن يرتجل الفتوحات ويخلق المعجزات — وقف يقرأ هذه النصوص ويتدبرها بوعى عجيب ، وما زال يقرأ ويعيد حتى تمثلها وتبناها بعد أن هضم بعضها ولفظ بعضها ، واستطاع في فترات قليلة أن يصبغها بصباغه ، وأن يصبها في قوالبه ، وأصبح علماء العرب ينتجون في شتى ميادين العلم : في الفلك والطب ، في الرياضيات والنبات ، في التاريخ الطبيعى ، في الكيمياء ، في شتى نواحى الفكر ، هذا عدا علومهم الأساسية التى كتبوا فيها المطولات والمجلدات ، وحتى أصبحوا في العلوم التى نقلوها عن غيرهم أصحاب مذاهب ونظريات ، بحيث قدر لهذه المذاهب والنظريات أن تعيش فترات طويلة في عصور سحيقة ، وأن تكون مادةً لكثير من المباحث التى كتبها أكابر العلماء فى أوائل النهضة الأوربية .

ولسنا هنا فى معرض التدليل على القيمة العلمية للمباحث والكتب التى أنتجها الفكر العربي وملاءمتها لجوهر العلم ومادته

فى هذا العصر، فهذا موضوع بحثه الكتاب والعلماء كثيراً، وانتهوا إلى أن كل شيء نسبيّ فى هذا الوجود، وهو يخرج عن نطاق بحثنا، ويبتعد عن صميم موضوعنا.

ولعل أوضح سطور تاريخ الفكر العربي قبل الإسلام وبعده هى هذه الأحداث التى انبثقت من صميم حياة العرب أنفسهم، فمنذ العصر الجاهلى، إلى ظهور الإسلام، إلى عهد الفتوحات، إلى التنظيم الإدارى والسياسي والعمراني فى عهد بنى أمية، إلى النهضة العقلية التى أخذت سمتها العلمى الخالص فى عهد العباسيين — فى جميع هذه الفترات تميَّز الفكر العربي بالخلق والمغامرة، فكان قوى الإشعاع، قوى الأثر، ما نزل بقعة من بقاع الأرض إلاّ ورسم عليها ظلاله وتلاوينه، وما هى إلا سنون حتى تنقلب هذه البقعة التى نزلها عربية المنزع، عربية الفكر، عربية اليد واللسان، وفى هذا من القدرة والحيوية ما يقف تاريخ الفكر إزاءه حائراً حيرة إعجاب وإجلال.

وكأنما هذه المناطق التي افتتحها في الشرق لم تكن لتروي ظمأه، أو تهدّئ ثورة حيويته ومطامحه، فانتقل إلى الغرب. وفي قصة فرار عبد الرحمن بن معاوية إلى المغرب وتأسيسه إمارة أموية لون من الحيوية العجيبة التي امتاز بها الفكر العربي...

فقد كانت هذه المغامرة وما جرّته وراءها من ذيول — من المغامرات التي فسحت في التاريخ الإنساني صفحات مجيدة للعرب حيث صبّوا الكثير من عبقريتهم وآدابهم وفنونهم، فأُسست الجامعات وازدهرت المدن، ورسموا أبدع ما أنتجه الذهن البشري من آيات الفن . . كما كان محصولهم الثقافي ذا تأثير مباشر في تغيير العقلية الفرنجية في أوربا . ويذهب الكثير من المستشرقين إلى أن آثارها لا تزال واضحة المعالم حتى الآن .

ولا يتسع المجال للإسهاب في هذه الناحية، فالأقوال والنصوص والكتب والدراسات أكثر من أن تحدّ، وهي كلها تحوم حول الدور الخطير الذي لعبه الفكر العربي في تاريخ الإنسانية . والنتيجة أن « النزعة العالمية التي أسلمها العرب إلى أوربا في القرون الوسطى كانت بدورها أعظم تراث حمله العرب على أعناقهم ليؤدوه إلى أهل الحضارة الحديثة، وأنه لو لم يكن للعرب — أي للفكر العربي — من فضلٍ غير هذا الفضل لكفى به دليلاً على ضخامة الأسس التى وضعوا قواعدها للحضارة والمدنية[1] »

* * *

لقد بدأ الفكر العربي ثورته الأولى في الفتوحات السياسية،

---

(١) « نواح مجيدة من الثقافة الاسلامية » ص ٣١ .

فما كاد ينشر رسالة الإسلام، ويفتتح العراق وفارس والشام ومصر وشماليّ إفريقية والأندلس ويبلغ منها غايته المثلى، حتى اتجه بدوره كما قلنا، إلى الفتوحات العلمية، وهو في ثورته الثانية لم يكن أقل أثرًا في تاريخ الحضارة من ثورته الأولى، وهكذا ظلّ منذ الفتح الإسلامي خمسة قرونٍ كاملة قوي الفاعليّة، كثير الإنتاج، لم تهدأ ثورته ولم ينطفئ ضرامه، وظلّ نوره واضح الإشراق ينشر رسالته فى أقصى بقاع الأرض: في الهند، في سمرقند، في بخارى، في الشرق وفي الغرب. وما زال في حيويته وعبقريته حتى تفككت السلسلة العربية ذات الإطار المحبوك، وتناثرت الأشلاء على صدى المطامع الصارخة التي انتهت بانهيار الكيان العربي المترامي الأطراف وذوبانه في بوتقة من الإمارات الصغيرة ذات المنازع الفردية. وكان ذلك توطئة لهجمات المغول والتتار الذين سادوا فترة غير قليلة من الزمن أطفأوا خلالها جذوة العلم ونبراس الحضارة، فوقف الفكر عن الإنتاج، وكأنه خشي الارتطام بنزوات الهمجية وسيولها الجارفة، وخشي أكثر على الوديعة التي اؤتمن عليها – هذه الوديعة التي تسلّمها نقية من اليونان، فانتقل بها بعيداً عن هجمات المغيرين، وألقى بذورها في التربة الأوربية. ولم يتركها للإهمال بل تعهدها

بالسقي والرعاية، وبالحَدَب والعناية، وما زال حتى أزهرت وأورقت وأعطت أطيب الثمار. عندئذٍ اطمأن إلى أنه سلّم الوديعة صافية بعد أن زادها صقلاً وأضفى عليها نوراً وإشعاعاً.. وكانت الهزات السياسية، في هذه الحقبة من الزمن، قد أجهزت أو كادت على حيوية الفكر العربي، ولم يبق له أمل أو قدرة على الإنتاج، فوقف يرقب تطورات القدر، وهو غيبي في إيمانه، وأوى إلى أعماق ذاته ينتظر بعقله الباطن انبثاق النور.. وما زال في نومه الطويل حتى أوائل هذا العصر أو قبيل منتصف القرن التاسع عشر.. وها هوذا يفيق على صدى اليقظات التي هزّت شعوب العالم هزّاً، يستعيد قواه وينفض عنه تراب الأحداث.. وكأنه يعود إلى الحياة أكثر قوةً وأشدّ نشاطاً من قبل.. يلتفت إلى ماضيه يستمدّ من تراثه العلمي والسياسي كل عناصر الحياة.. وهو وجلٌ خائف... أيزجّ نفسه في هذه التيارات الفكرية التي تتصارع بقوة؟ ما مصيره إذا زجّ نفسه في هذا المعترك؟ أتبتلعه حضارة العصر أم يظل محتفظاً بخصائصه القومية؟.. كثير من أهل الغيرة على تراث الشرق يقولون بالابتعاد عن الغرب، وكأنما هم يخشون أن تمحى الخصائص الباقية في بوتقته،

وفاتهم أن هذا خوف الوكلين العاجزين . لأن الشرق والغرب قد تلاقيا منذ القديم واختلطا في كثير من الأحوال ، وظل الشرقي شرقياً والغربي غربياً على مدى الأجيال والأحقاب .

إن الفكر العربي اليوم في ولادته الأولى ، وهو يسير بقوةٍ وعنف ، يلتهم كل ما يقدم إليه ، وهو واثق بأن هذه الأطعمة التي تقدم له لن تفسد معدته ، لأن لديه من المناعة ما يجعله يلفظ كل ما لا يتلاءم وخصائصه . . وهو اليوم يطل على الدنيا بعينين يقظتين : يرى الصراع ، ويرى التطاحن ، ويرى المآسي الدامية والفواجع المؤلمة . . ويرى — ويا للأسف — أن القوة مبدأ الحق ، وأن الضعف أسطورة من الأساطير . . فهل يجب أن ينمو الفكر العربي على هذه المبادئ ويرسم دروب اتجاهه في الحياة على هذه الخطط ؟ كان بالأمس طفلاً تفرحه الألاعيب ، ولكن الأحداث قد ساعدت هذا الطفل على النمو بسرعة ، فهو اليوم في فتوته وفى تفتحه للحياة ، يقبس الأضواء ويتهيأ للوثب ، يقرأ بنَهم ، يؤلف ويترجم ، يكوّن نفسه تكويناً جديداً ، يوائم بين ماضيه وحاضره ، يلتفت إلى الماضي لا للتفاخر فحسب ، لأن التفاخر لون من الميع والضعف ، بل ليسير فى النهج الذى سار عليه مبدعو ذلك الماضي . . وهو إذ يساير الفكر الغربي فى ميوله

ونزعاته ، في تطوراته وانبثاقاته ، يأخذ منه أكثر مما يعطيه ، وكأنه يشعر أنه أعطاه كثيراً ، فهو يسترد بعض دَيْنه ، وقد يعطيه غداً . كل شيء في الدنيا يقوم على الأخذ والعطاء . . لقد أخذ العرب الحضارة من يونان ثم أعطوها الأوربيين ، وهي اليوم مشاعة لجميع الأمم والشعوب . فهل نحن مهيأون لأن نلعب الدور نفسه الذى لعبه الفكر العربي في الماضي ؟ . . جواب ذلك في ضمير الشباب العربي المهيّأ للوثب والخلق والإبداع . . وهذه ميزة العربي منذ الأزل .

ابن خلدون والعرب

« ما كان العرب قط أمة تحب إراقة الدماء وترغب في الاستلاب والتدمير ، بل كانوا على الضد من ذلك أمة موهوبة جليلة الأخلاق والسجايا ، تواقة إلى ارتشاف العلوم ، محسنة في اعتبار نعم التهذيب ، تلك النعم التي قد انتهت إليها من الحضارات السالفة ، وإذ شاع بين الغالبين والمغلوبين التزاوج ووحدة المعتقد ، كان اختلاط بعضهم ببعض سريعاً ، وعن هذا الاختلاط نشأت حضارة جديدة — الحضارة العربية — وهي جماع متجدد التهذيب اليوناني والروماني والفارسي . وذلك المجموع هو الذي نفخ فيه العرب روحاً جديداً فنضر وأزهر ، وألفوا بين عناصره ومواده بالعبقرية العربية والروح الاسلامي ، فاتحد وتماسك بعضه ببعض ، فأشرق وعلا علواً كبيراً ، وقد سارت الممالك الاسلامية فى القرون الثلاثة الأولى من تاريخها « ٦٥٠ — ١٠٠٠ م » أحسن سير ، فكانت أكثر ممالك الدنيا حضارة ورقياً وتقدماً وعمراناً ، مرصعة الأقطار بجواهر المدن الزاهرة ، والحواضر العامرة ، والمساجد الفخمة ، والجامعات العلمية المنظمة ، وفيها مجموعة حكمة القدماء ومختزن علومهم يشعان إشعاعاً باهراً »

لوثرب ستودارد

في كتاب « حاضر العالم الاسلامي »

« . . . لما انتهى دور الفتح في أواخر القرن الثاني للهجرة عقبه طور التنظيم ، وقد عرف العرب كيف ينتفعون من آثار المدنيات التي تقدمتهم فاقتبسوا عن المصريين والبابليين فنّ الريّ واستخدموه في البلدان التي دخلوها ، وتعلموا الصناعة من سورية وبلاد الفرس وأتقنوها ، وتعهدوا العلوم والآداب والفنون التي خلفها اليونان والفرس فازدهرت في أيامهم لا سيما في عصر هارون الرشيد «٧٨٦ — ٨٠٩» .

والعرب هم الذين اخترعوا الكيمياء والجبر وعلم الفلك . وكان لأطبائهم مقام كبير وشهرة واسعة في القرون الوسطى ، حتى إن مؤسسي جامعتنا في مونبلييه قد درسوا على العرب في أسبانيا ، وعلى أيديهم انتهت من الصين صناعة الورق والبارود ، وفي كل مكان حلوه كانوا رسل المدنية وعنوان التساهل والنشاط والشجاعة والكرم والظرف .

كان الأوربيون يدعون العرب برابرة في زمن كانت البربرية متأصلة فينا ، فقد كنا خشان الطباع ، قساة القلوب ، عبيد الجهل ، أو بتعبير آخر أنصاف متوحشين .

الشرف أجمل مظاهر المدنية وأبلغ معانيها ، وقد انتهى إليهم من الاسبان الذين تشربوه من العرب أربابه، هؤلاء العرب الذين ملأوا أسبانيا خلال القرون الثمانية التي قضوها فيها بروائع الفن التي تدهش كل من يزور غرناطة وإشبيلية وطليطلة وقرطبة وغيرها من المدن التي كانت كعبات للثقافة في ذلك العهد . وقد قال أحد الكتاب وفي قوله كل الحقيقة : « إن الظرف هو من صفات كل المنشآت العربية » ولا

عجب فالحمراء وجنة العريف ومنائر إشبيلية وجامع قرطبة وباب الشمس في طليطلة هي بدائع فكر نيّر وذوق بالغ . وفي غرناطة وطليطلة وغيرها أنشأوا الجامعات التي كانت مرجعاً لطلاب العلم والأدب من كل الأقطار على اختلاف نحلهم ومذاهبهم ، ومن تلك الجامعات نشأت ثقافتنا الفكرية التي نباهي بها اليوم »

سرف كورتلماته

... قد نجد عند ابن خلدون ، مؤرخنا الفذ ، كل شيء طريف : بحوثه عن طبيعـة العمران ، نظراته الصادقة في فلسفة التاريخ ، استدلالاته على المجتمع وظواهره ، تخطئته مَنْ سبقه من المؤرخين الذين تورطوا فى الكثير مما لا ينبغي أن يقع فيه مؤرخ يُطلب منه أن يزن الحوادث بميزان الحق والإنصاف لا بنزوات المغرض الذي تعبث بقلبه الأهواء . وقد نامس فيه طبيعة الناقد المجدّد في عرض حوادث الاجتماع وفي وضعه الفلسفة الاجتماعية في قالب علمى ... بل نامس ماهو أقوى من ذلك وأوضح . وكل ذلك يضعه في القمة العليا بين مؤرخي الأمم وكبار علماء الاجتماع ذوي النظرات الخاصة في ظواهر الكون والحياة ، وفي سياسة الملك وطبيعة العمران . . ولكن ما لا نقرّه عليه — بل ما يجب أن يكون موضع بحث

ومناقشة يجدر بالأدباء والمؤرخين معالجته على ضوء التفكير المجرّد عن كل حزبية أو عصبية — اتهامه العرب بـ « الوحشية » وأن قدرتهم في التسلّط تقف عند حدّ البسائط ، وأنهم إذا ما تغلبوا على أوطانٍ أسرع إليها الخراب ، وأن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك ، إلى غير ذلك مما نراه واضحاً في مطاوي مقدمته . ولكيلا نكون موضع تهمة في تلخيص ما أشرنا إليه نورد بعض جمله ، قال :

١ — « إنهم — أي العرب — بطبيعة التوحش الذي فيهم — أهل انتهاب وعبث ، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ، ويفرّون إلى منتجعهم بالقفر ، ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلاّ إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم » !

٢ — « وإنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم ، فصار لهم خلقاً وجبلة ، وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة ، وهذه الطبيعة منافية للعمران »

٣ — « إن العرب أكثر بداوة من سائر الأمم » .

وقبل مناقشة هذه الفكرات نريد أن نتساءل : هل يقصد ابن خلدون « العرب » من حيث هم أمة لعبت دورها اللبق في تاريخ الحضارة ، أم « الأعراب » سكان البوادي الذين لا يزال

أكثرهم على سجاياهم الأولى وعنعناتهم الجاهلية ؟ وهل يمكن أن تكون خشونة البدوي سبباً نصم به العربي ذا السجايا الناصعة الذي خلق مدنية لا تزال كواكبها تسطع ، وبعد فهل يقصد البدو الذين لم يعمِّر الإسلام قلوبهم ، أو تكون كلمته عامة تشمل العرب والأعراب معاً ؟ وبديهي أن العرب غير الأعراب . .

في كتب اللغة أن الأعراب ، من العرب ، سكان البادية . والرجل أعرابي إذا كان بدوياً صاحب نجعة وانتواء وارتياد وتتبّع مساقط الغيث . ويقال إنه إذا قيل للأعرابي : يا « عربي » فرح بذلك وهشَّ ، وإذا قيل للعربي : يا « أعرابي » غضب .

وفي كتب اللغة أيضاً : أن مَنْ نزل بالبادية ، أو جاور البادية ، فظعن بظعنهم ، وانتوى بانتوائهم ، فهم أعراب . ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها مِمّنْ ينتمي إلى العرب فهم « عرب » وإن لم يكونوا فصحاء .

والأعرابي : الجاهل من العرب .

إذن ، فماذا أراد ابن خلدون من كلمته العامة المطلقة ؟ أراد العرب أم الأعراب ؟

أسئلة تمرُّ بالفكر ، وقد يستطيع كل باحث أن يعللها بحسب أهوائه وميوله : واحد يحب ابن خلدون ويحب قومه فيجب أن

ينفيَ عن العرب كل مذمة ومنقصة، وربما لا يتورع أن يلتمس للمؤرخ أوهى الأسباب ؛ وآخر لا يهمه العرب بقدر ما يهمه ابن خلدون فيجد في كلامه آية الصدق وروح الحق، وربما لا يتورع هذا « الشعوبي » أن يتخذ من هذا الكلام الطارئ دستوراً محكماً يطبقه على العرب في جميع العصور وفي كل البقاع وإلى ما شاء الله ! . . وليس هذا ما يبرز الفكرة في ثوبها الحقيق، بل البحوث المجردة هي التي تجلوها ناصعة وتبرزها نقية غير مبرقعة بنقاب!.. ولعلنا لا نبعد عن الحقيقة إذا افترضنا أن ابن خلدون أراد البدو في حكمه القاسي لا العرب المتحضرين، ولا يُعقل أبداً بعد أن لمس سرَّ الفتوحات الإسلامية وما تركه العرب في الشام وبغداد ومصر وفارس وقرطبة من مدنية باهرة وحضارة مكينة القواعد — لا يعقل أن يصم مؤرخنا الحكيم الشعب العربي ذا الخصائص النجيبة بالتوحش والبداوة وبالعبث والنهب، إلى آخر هذه الصفات والمخازي التي قد تنطبق على بعض الشعوب وهي في بداوتها الأولى، لا على شعب فرض مدنيته على أممٍ متحضرة، فاستطاع في مئة عام أن يحيّر العالم أجمع بمعجزات فتوحاته . .

على أنني أحب أن أستطرد هنا إلى مسئلة طالما جالت في فكري من سنوات، ولا أزال حتى كتابة هذه الكلمة

في حيرة من الجواب عنها جواباً صريحاً، وهي :

أعراب اليوم — أي هذه القبائل البدوية التي تحتل صحراوات جزيرة العرب — هل ثمة فروق أو مباينات في طبائعها وخصائصها وعصبيتها عن الأعراب وتلك القبائل البدوية التي اشتركت في مجد الفتوحات الإسلامية ؟ يخيّل إليّ، وهذا ما أفترضه دائماً ، أن هؤلاء من أولئك ، وأن الخصائص الجنسية والعصبية وطبيعة الفتح والقتال هي هي عند الفريقين لم يتبدل منها شيء !.. وإذا كان افتراضي صحيحاً فلِمَ لا نلمس في هذا العصر — حتى في عدة عصور راجعة بعيدة — بعض هذا الذى نعرفه عن ذلك البدوى الذى لم يجد أية غضاضة في أن يغامر وأن يصل في مغامراته إلى قلب أوربا ؟ أفي الأمر معجزة ترجع إلى سرّ النبوة ؟ أم ثمة اعتبارات موضعية ؟ أم أن طبيعة أولئك غير هؤلاء ؟ أم أن بقاءهم على ما كانوا عليه قبل ألفي سنة دون أن يأخذوا بمعدّات الحضارة هو الذى جعلهم كمية مهملة لا يستطيعون القيام بعمل مجيد يذكره التاريخ بالفخر والإعجاب . . هذا مع العلم بأن مغامرات الفتح في صدر الإسلام لم تكن قطّ لتستند إلى مثل هذه المعدّات بقدر اعتمادها على ما في صدر البدوى من تضحية وإيمان ؟ . . ثم هذه القبائل المنتشرة في قلب الصحراء يأكل بعضها بعضاً دون أن

تستطيع القيام بمغامرةٍ ما في سبيل مثلٍ من تلكم المثل العليا، هل يتاح لها ذلك قبل أن تفني الكثير من عنعناتها في شخصية فذة تنقلها من طور إلى طور.. ؟ أم ماذا ؟ أسئلة كثيرة تتردد في نفسي كلما عرضت لهذا الموضوع دون أن أستطيع ربط مقدماته بنتائجه، وفي اعتقادى أن موضوعًا كهذا يحسن أن يتناوله الكتاب والمؤرخون، للوصول به إلى نتيجة حاسمة قد تضيء بعض هذه الجوانب الغامضة في تاميحات ابن خلدون عن العرب أو الأعراب، أو ما لا يزال سرًّا في ضمير مؤرخنا العظيم الذى طوي كنهه مع الأيام ! . .

وبعد، فلنأخذ كلام ابن خلدون على علاته، ولننظر بالعين المجردة إلى ما قاله فى العرب، ولا شك أن شخصية فذة كابن خلدون لا يفوتها هذا التباين الذى تحدده كتب اللغة وما هو معروف متداول بين الأعرابي والعربي. نعم، لننظر بالعين المجردة إلى ما قاله فى العرب، فهل نجد فيه هذا التجرد الذى يجب أن يتصف به مؤرخ مثله أخذ على غيره من المؤرخين القدماء انغماسهم فى العصبية والهوى دون التفكير . . ووصفه، وإن كان ينطبق بعض الانطباق على الأعرابي، لبعيد تمام البعد عن العربي الذى استطاع أن يفرض حضارته على غيره من الشعوب، وأن

تظل آثارها ماثلة حتى يومنا هذا — إن شعباً هذا شأنه وهذه طبيعته لا بدّ أن تكون صفات المدنية بعض سجاياه الطبيعية. والحرية والمدنية توأمان ، والعربي حرّ بطبيعته ، أى أنه مدني ، وحريته هذه التى دفعته إلى المغامرة وإلى الفتح هي التى فسرها ابن خلدون بالوحشية ، وهو تفسير فيه شيء من المغالطة والشطط..

يقول ڤيلا سباسا ، الشاعر الأسباني الفذ :

« ليس في طاقتنا نحن الأندلسيين المعتنقين بإيمان ثبت دين المسيحية أن نجحد دين أسلافنا المسلمين. فلئن كان الأول دين ضمائرنا فالثاني مابرح نتاج خيالنا القومي المزدان ببدائع التصور.. وإننا — على رغم لباسنا الحديث وإهمالنا لغة أسلافنا العرب — ما نزال حفدة أولئك البدو الذين تعودوا في وحشة الصحراء أن يخاطبوا الله وهم قعود أمام خيامهم المنسوجة بشعر الإبل.

« وكما أننا لو انتزعنا بعض الكلس عن جدران جلّ كنائسنا وجدنا تحته لمعاً مذهبة لاسم الله الأقدس المحفور بالحروف الكوفية ، فكذلك لو خدشنا بالأظافر بشرتنا الأوربية الصفراء لبرز لنا من تحتها لون بشرة العرب السمراء. إن قوميتنا الغربية ما هى غير العرَض الظاهر ، وأما القومية الشرقية فهي حقيقتنا الخالدة . وإن كل ثوراتنا الأدبية القديمة والحديثة لم تكن في

الغالب غير أثر للروح العربية التى تطفر من أعماقنا محتجة ناقمة ، لأن ابن الصحراء المتمرد الحر الذى تعود الهواء الطلق تحت نور الشمس لا يقوى على الحياة خلف القضبان المتراصة في الأقفاص المظلمة المثقل جوها بكثافة القواعد المنطقية والمناهج اللغوية »

هذه الحرية التى ينطوى عليها صدر البدوى هى التى تحدو بابن خلدون أن يصمه بـ « الوحشية » ، وفي اعتقادى أنه لو لم يكن العربي حرًّا بطبيعته ، ولولا هذا الإيمان القوى الذى يتغلغل في صدره . نعم ، لو لا ذلك لما ا كتسح العرب سواد العالم الروماني القديم ، ولما جاوزوا البحر إلى أوربا حتى أشرفوا على ضفاف « اللوار » في أقلَّ من ربع قرن .

وحين يقول ابن خلدون إن « الوحشية » أصبحت خلقاً في العربي وأصبحت عنده شيئاً ملذوذاً ، يعلل هذه الجبلة بقوله : « لما فيه — أى في العربي — من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة » وهنا يضيف أن « هذه الطبيعة منافية للعمران » !

أو يكون الخروج على ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وحشية ، ويكون المتمرد صاحب طبيعة منافية للعمران ؟ وإذا كان الحكم فاسداً والسياسة معوجة وخرج الإنسان عليهما ، ولو كان من الأعراب ، ألا يكون مدني الطبيعة ، مشبع الروح بالحرية ؟...

بلى . . وإذن تكون نظرية ابن خلدون فى حق العرب فاسدة من أساسها .

ومن الأمور البديهية أن ينقلب الرجل الهادئ الذى يراد أن تداس كرامته وتغصب حريته إلى وحشٍ ضار أو بتعبير أرق إلى « نمر » يذود عن حياضه وكرامته وحريته بالدم وبما هو أروع من الدم . وهذه أوروبا معلمة الشعوب ماذا كان من بعض أممها فى الحرب الكبرى الماضية وفي هذه الحرب ؟ ألم تلجأ حين اضطرت للدفاع عن كرامتها وحريتها إلى أقسى وأروع المدمرات الجهنمية ، ووصل ببعضها الجنون والوحشية إلى استعمال الغازات الخانقة . ولا ريب أن هـذه التدابير أكثر فظاعة وأشد هولاً من هذه الوحشية التى ينسبها ابن خلدون إلى العربي ظلماً وعدواناً ! . . وإذا كان أحد لا يجد فى استبسال الأمم لأجل حريتها ، برغم ما تجره الحرية أحياناً من أهوال وفظائع ، مدعاة لوصفها بالوحشية ، مادام هذا الاستبسال فى سبيل الحرية والكرامة ، فما أحرانا أن نجرد هذه الصفة عن العربي أو الأعرابي الذى خرج عن الحكم وثار على السياسات الإقليمية العوجاء فى سبيل حريته وكرامته . .

أتراني توسعت كثيراً فى الافتراض حين نقضت رأى

ابن خلدون عَلَى ضوء الحرية التى أشبعت بها روح العربي ؟ كلاّ .. فما دام افتراضه عامًّا لا يستند إلى وقائع محسوسة فما علينا أن يكون افتراضنا عامًّا . فإذا حاولت بعض القبائل مثلا هدم بعض الأمكنة أو تخريبها فما هى — عَلَى ما يخيل إلىَّ — إلَّا فى سبيل الحرية والكرامة . وهذا ما تلجأ إليه كل أمم العالم وما نشاهده رأى العين فى عصرنا هذا . .

يقول الدكتور عبد الوهاب عزام فى مقدمته لكتاب « تاريخ الحضارة الإسلامية » لبارتولد المستشرق الروسى :

« . . ونقل بارتولد عن ابن خلدون أن العرب بدو هادمون للحضارة ، وهو قول لا يصدقه التاريخ ، ولست أدرى كيف غفل هذا الفيلسوف الكبير عن حقائق التاريخ الباهرة . فقد استولى العرب عَلَى الشام والعراق ومصر وإيران فلم تخرب ، وقد سارعوا إلى إنشاء المدن منذ القرن الأول ، وبقى كثير من هذه المدن عَلَى مرّ الزمان ، وكان لهم فى الزراعة والتجارة والعمران نصيب لا ينكره إلا من حرف الله بصره وقلبه عن الحق »

ونقض الدكتور طه حسين آراء ابن خلدون بقوله :

« . . وقد غمط العرب حقهم وشدَّد النكير عليهم غير فيلسوف قبل عهد ابن خلدون بزمن طويل ، ولكن ابن خلدون

استطاع أن يصوغ ما ينكره عليهم صوغاً منظماً . وإذا أردنا أن نصل إلى منشأ ذلك التعسف بحق العرب وجب علينا أن نرجع إلى القرون الأولى من الهجرة ، وأن نبحث عنه فى تلك الأمة الفارسية التى أخضعها العرب ، هذه الأمة التى لم تدخر وسعاً فى الانتقام لنفسها من ذلك العدوان ، سواء أكان ذلك الانتقام بتشويه المبادئ السياسية والدينية أم بالدعوة إلى احتقار الآداب وتسفيه السنة » . « فمنذ القرن الرابع أجهزت غزوات الترك والحروب الصليبية ، ثم غزوات التتر ، على عظمة العرب حتى إنهم فى عصر ابن خلدون قلما كانوا يمثّلون فى شؤون المسلمين السياسية ، وكانوا حينئذٍ يئنون فى أسبانيا من جور النصارى الأسبان . فليس غريباً إذاً أن يزدريهم ابن خلدون ، ولا سيما أنه عاش فى ظل الأسر البربرية المجاهرة بعدائها للعرب الذين خربوا إفريقية فى القرن الخامس » .

وهنا ، يتساءل الدكتور طه حسين بكثير من الدهشة كيف أن ابن خلدون لم يفهم سرّ العوامل التى أدّت إلى تخريب إفريقية الشمالية ، مع أن هذا التخريب لم يكن إلّا تنفيذاً لأمر خليفة مصر الفاطمى الذى أراد أن ينتقم من أسرة بربرية كانت خاضعة له من قبل ، ثم غدت خصماً له . ثم منْ هم العرب الذين فعلوا ذلك ؟

يجيب الدكتور طه بأنهم « بدو أعراب لم يتلقوا تربية ونظاماً ، ومن الغريب أن ينسى ابن خلدون أن فتوحات العرب فى فارس والشام وأسپانيا بل فى إفريقية لم تؤدِ إلى خراب هذه البلاد ، وأنه لو كان عادلاً حقاً لفحص الأوامر التى أصدرها الخلفاء إلى الجيوش الظافرة ، وهى أوامر تقضى بمعاملة المغلوبين أحسن معاملة وأكرمها ، وكان حقًّا عليه ألا ينسى المعاهدة التى عقدها الخليفة عمر بنفسه مع أهل بيت المقدس . ومن المحقق أن العرب من بين جميع الأمم التى قبضت على ناصية الحكم فى الدول الإسلامية فى العصور الحديثة كانوا أقدر وأعدل من تولى حكمها ، وأمهر من عرف أن يهيئ لشعوبها أسباب التقدم العقلى والمادى ، وليس لنا إلا أن نوازن بين النتائج التى ترتبت على حكم الترك وحكم العرب فى بلاد المشرق ، حتى نقرر أن العرب ما فعلوا سوى أن شادوا وعمروا ، وأن الترك ما فعلوا سوى أن أبادوا وخربوا »

ولا نريد بعد هذه التدليلات ، وبعد ما قدمناه ، أن نزيد كلمة سوى أن نقول إن ابن خلدون كان مسرفاً فى كلمته تلك ، وأن عوامل البيئة التى نشأ فيها والتى كان من شأنها هذا التوتر بين العرب والبربر — هى التى جعلته أن يلفظ حكمه القاسى بدون مسوِّغ .

ثقافتنا العربية القديمة
وكيف نعمل على إحيائها

« . . . الآن ابتدأ الأوربيون يدركون مقدار دينهم لما قدمه التمدن العربى لأوربا مدة القرون الوسطى عندما اشتركت فى نشر هذا التمدن كل العناصر والملل والنحل على السواء . الآن شرعوا فى أوربا يعترفون بأن العلوم الطبيعية والطبية والرياضية والأدبية والفلسفية جميعها اغترفت من ذلك المنهل هى والكثير غيرها من أنواع المعارف الإنسانية ودوائر التهذيب طول مدة النهضة الأوربية فى عصر الرينسانس

الآن أخذوا يقدرون تأثير الحضارة العربية فى درس الميكانيكا والزراعة والنباتات ، وقد رفع أساتذة علم اللغات فى أوربا فى هذا العصر الستار عن مئات الكلمات العربية التى دخلت إلى اللغات الأوربية من أيام تلك الحضارة العربية ودرجت بين العلوم إلى يومنا هذا من غير أن يعلموا أصلها العربى . . »

المستشرق الدكتور يهودا
الأستاذ بجامعة مدريد

« إن الأمم فى بدء وثباتها تتطلع دائماً إلى الماضى لتخلق منه ذلك التراث الذى خلفه الأوائل مجداً جديداً ، والنهضات الثقافية فى كل عصور التاريخ قد بدأت متجهة نحو العصور القديمة تستمد منها الوحى والإلهام . وتاريخ الإنسانية بمجموعه تحتويه القبور أكثر مما تحتويه الدور ، ولن يكون لأمة حياة إذا تركت هذا المجد مطوياً فى السجلات ولم تقرأه فى كل آن »

الدكتور هيكل

كيف نعمل على إحياء ثقافتنا العربية القديمة ؟

هذا سؤال وجهته إلى طائفة من أصدقائي الأدباء ، فكانت أجوبتهم متباينة مختلفة ، فمنهم من أنكر قيمة الثقافة العربية ، ومنهم مَنْ اعتبرها ثقافة إسلامية غير عربية ، ومنهم مَنْ أنكر موتها حتى نعمل على بعثها وإحيائها ، ومنهم مَنْ اعتبرها البذور الأولى لنموّ نهضتنا الفكرية الحديثة فى هذا العصر . .

وإنى ملخص هنا بعض هذه الآراء المتباينة توطئةً لبحث هذه الناحية العامة التى يجب أن يعيرها كل مفكر عربى الكثير من اهتمامه .

قال الدكتور اسماعيل أدهم المستعرب التركى :

« إن بحث إحياء الثقافة العربية يحمل إلى الذهن أن هناك

ثقافة عربية قديمة ، بينا الواقع غير ذلك ، فهناك ثقافة إسلامية يعبّر عنها تجاوزًا بالثقافة العربية ، اشترك فى إقامة بنائها الفارسى قبل العربى ، والرومى قبل ابن الصحراء .

ولم يكن محور هذه الثقافة خصائص العنصر العربى إلاّ فى الشرق العربى ، إنما كانت خاصتها الأساسية ومحورها « المدنية الإسلامية » التى ينزل منها الإسلام منزلة المدار من حجر الرحى ، وإن كان الإسلام فى حدّ ذاته كون قراراته مما انصبّ فى تضاعيفه من مظاهر الحياة العقلية والشعورية والاجتماعية عند العرب ، فذلك يرجع لكون الإسلام خرج من فلوات شبه جزيرة العرب ، والإسلام كعقيدةٍ دينية فى الجماعات ليس أكثر من مظهرٍ اجتماعى يرجع لعوامل ومؤثرات طبيعية واجتماعية تضمّنها المحيط الذى نشأ فيه . إذن فالخصائص التى حملها الإسلام فى طياته لا شك أنها عربية ، غير أنها تكيّفت فى إيران بخصائص العنصر الفارسى ، وكذلك فى التركستان بخصائص العنصر التورانى » .

وهذا رأى أكثر من أديب مصرى ، كإسماعيل مظهر ، ومحمد عبد الله عنان ، وهو صدى آراء بعض المستشرقين ، وقد ردّد هذا الرأى أخيرًا المستشرق الروسى ف . بارتولد فى كتابه

« تاريخ الحضارة الإسلامية » مما حمل الدكتور عبد الوهاب عزام أن ينقض هذا الرأى بقوله :

« . . . فأئمة علوم الدين واللغة فى ذلك العصر أكثرهم عرب ، ولست أقول هذا عصبية للعرب ولكن إحقاقاً للحق ، فقد ظلم العرب منذ شاع رأى ابن خلدون العربى الكندى فى أن حملة العلوم فى الإسلام أكثرهم العجم . وهو كلام يعوزه شىء من التبيين . وليس هذا موضع المجادلة فى رأى ابن خلدون ، ولكنى أعارض رأيه بهذه الكلمات :

(١) وضع ابن خلدون العرب فى مقابل غير العرب ، فجعل أمة واحدة فى إزاء أمم كثيرة ، فظهر لغير المتثبت أن نصيب العرب فى العلوم الإسلامية قليل .

(٢) نظر إلى البيئة حين أراد أن يجعل العرب فُرسًا ، فقال عن علماء العرب الذين عاشوا فى إيران إنهم عجم بمنشئهم وشيوخهم ، ونظر إلى الجنس حين أراد أن يجعل العجم الذين عاشوا فى بلاد العرب عجماً . ولو نظر إلى البيئة وحدها لعدّ من العرب كل العلماء الذين نشأتهم الكوفة والبصرة وبغداد والبلاد العربية كلها . وعدّ سيبويه البصرى تلميذ الخليل للعرب ، ولو نظر إلى النسب

وحده لعدّ للعرب كثيرًا من أبنائهم الذين نشأتهم البلاد العجمية مثل الفخر الرازى ومحمد عوفى[1] »

وليست هذه الناحية من صميم بحثنا بل جاءت استطرادًا . ونعود إلى رأى الدكتور أدم فى خصائص هذه الثقافة التى يصفها بقوله :

« ليس فيها ما يشجع على إحيائها من جديد ، لأن قرارة الثقافة الإسلامية « الغيب » ، وإن ابن العشرين لا يمكن أن يحيا فى صميم هذه الثقافة ، ولا يستطيع أن يعيش بمنطقها » .

وأجاب الدكتور حسين فوزى بقوله :

« . . ماتت الثقافة العربية عقب القرون الوسطى وذهب غبارها مع الثقافات الأخرى التى عرفت أوربا فيما بين انحلال الإمبراطورية الرومانية وعهد الرينسانس ، ولا قيمة للثقافة العربية عندى أكثر من أنها لعبت دور انتقال فى العصور الوسطى ، فكانت مستودعًا لبعض تفكير مظاهر اليونان فيما قبل عصر إحياء العلوم . وهو دور إيجابى جليل يمكن أن يضاف إليه الدور السلبى الذى لعبه العثمانيون حينما قضوا على حضارة بيزنطة ، فخرج علماؤها وتشردوا وكانوا نواة من نوى عصر الإحياء . . »

---

(١) تاريخ الحضارة الاسلامية لـ : ف . بارتولد ترجمة حمزة طاهر ص ٧

ويعتبر الدكتور حسين فوزى الثقافة العربية القديمة حلقة اتصال بسيطة بين اليونان وعصر الرينسانس ، وقد انطفأ نورها كما ينطفئ السراج الذى نضب زيته واحترقت ذبالته ، ولا يكتفى بهذا الحكم بل يقول « وانكسر إناؤه أيضاً » ثم يجزم بألا فائدة من إحياء الثقافة العربية القديمة بهذه الكلمة الحاسمة :

« . . إن من خير جميع الأمم التى تتكلم العربية أن تنصرف عن خيالها بشأن هذه الثقافة ، فلا تضيّع وقتها فى نبش قبور لن تجد فيها حتى ولا عظامًا متماسكة ! — كانت تراباً وإلى التراب تعود — »

وبينا يحكم هذا الأديب المتطرف على الثقافة العربية القديمة بالموت ، منكراً كل فضل للعرب ، وكل قيمة للتراث العربى القديم ، يجيب الأستاذ توفيق الحكيم بقوله :

« . . تسألنى كيف نعمل على إحياء ثقافتنا القديمة وهل ماتت هذه الثقافة حتى نطلب إحياءها . إن الثقافات والحضارات لا تموت ولكنها تهضم فى ثقافات أخرى وحضارات أخرى ، فالثقافة العربية القديمة كالثقافة الإغريقية القديمة قد امتصتها واحتوتها الحضارة الأوربية القائمة ضمن التى امتصّت وهضمت . فمادة الثقافة لا تنعدم ولكنها تتحول إلى ثقافة جديدة ، وتدخل فى

تركيب حضارة جديدة . فالقول بإحياء الثقافة العربية القديمة أو الإغريقية القديمة قول لا أستطيع أن أفهم له معنى . فالحضارات إنما تقوم على الحضارات . وهيكل الحضارة القائمة إنما ينهض على طبقات متعددة من حضارات سابقة . فلو فرضنا المستحيل وأردنا أن ننزل طبقات ونرجع إلى ثقافة قديمة بعينها وحالتها وكميتها الغابرة، فماذا نجد فيها غير شيء أوليّ إلى جانب ثقافة العصر الحاضر. أما إذا كان المقصود من كلمة الإحياء لا إحياء الثقافة القديمة بعينها وحالتها وكميتها إنما المقصود إحياء المجد الغابر والمكانة والازدهار الذى لفت الأنظار إلى الثقافة العربية القديمة فى عصرها فهذا شيء آخر ، وهذا أمر ممكن لو أننا عملنا واجتهدنا فى سبيل إحداث نهضة ثقافية يشعر بهزتها العالم المتحضر . ووسائلنا فى هذا هضم كل ثقافة موجودة ، قديمة أو حديثة ، وإخراج ثقافة جديدة تنمّ عن روحنا وشخصيتنا الشرقية ، وتستطيع أن تقف جانباً إلى جنب مع الثقافتين العظيمتين الحاضرتين : اللاتينية والأنجلوسا كسونية » .

وقد أجاب كثيرون عن هذا الاستفتاء ، ويطول المجال لو رحت أجمل جميع ما وردنى بهذا الصدد ؛ فانى اخترت منها هذه الفقرات التى تشير إلى الموضوع من الناحية السلبية !

هل من فائدة تعود على نهضتنا من إحياء تراثنا الفكرى القديم ؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال ، أريد أن أقول كلمة فى قيمة هذا التراث .

لقد ترك العرب ثروة ضخمة من البحوث فى اللغة والأدب والنقد ، فى التشريع والفلسفة والتاريخ ، وفى مختلف النواحى الثقافية ، ومَنْ يتاح له أن يبحث هذه المخلفات بدقة وفهم ووعى يقف على مبلغ الجهد العظيم الذى صرفه الأوائل فى إبداع هذه المخلّفات ، فقد مازجت حياة العرب الفكرية حياة مَنْ سبقهم من الأمم ، وكان من هذا التمازج هذه الحضارة العربية التى حملت إلى أوربا فى تلك العصور السحيقة صميم الفلسفة اليونانية .

والتراث العربى الإسلامى يشكل فى تاريخ الفكر حلقة طويلة بين هذه الفترات التى انقضت بين عهد الإغريق وأوائل النهضة الأوربية — حلقة ليست بسيطة كما قال الدكتور حسين فوزى . وما من أحد ينكر قيمة الكتب التى كتبها الرازى والكندى والفارابى وابن مسكويه وابن سينا والغزالى وابن باجه وابن طفيل وابن رشد وإخوان الصفا وأئمة الصوفية وكبار الشعراء والمؤرخين كالحلاج والمعرى وابن خلدون وغيرهم وغيرهم . .

إن هذا المحصول الثقافى الذى أبدعه العرب ، ولوّنته الحضارة الإسلامية بأصباغها الزاهية ، لا يمكن اعتباره عديم الفائدة لا تأثير له فى نهضتنا الفكرية ، أو أن تأثيره سلبى قد يرجع بنا عشرات السنين إلى الوراء . نعم ، لا يمكن اعتبار الثقافة العربية القديمة ثقافة متينة . ليس فيها ما يشجع على إحيائها . ومن الغريب أن ينظر إليها بعض أدبائنا هذه النظرة الضيقة على حين سبقنا الأجنبى إلى الكشف عن خصائصها وجمالها والوقوف وقفة إعجاب بقيمتها . لقد سبقنا المستشرقون إلى البحث عن تراثنا منذ نصف قرن تقريباً ، وإذا حَيْرتهم وإعجابهم بقيمته يبلغان حداً مابعده حد . . وأغلب ظنى أنه لولا غوص الأجنبى المستشرق فى أعماق العربية يكشف دررها ويقضى السنوات الطوال فى نشر مخطوطاتها ويدلنا على قيمتها ويقارن بينها وبين أصفى ما أبدعه فكر الإغريق قديماً والفكر الغـــربى حديثاً — أغلب ظنى أنه لولا عناية المستشرقين فى نشر كتبنا ودلالتنا على نواحى القوة والعمق والجمال فى ثنايا سطورها لما تردد أكثر الشباب — لو كان الأمر إليهم — أن يجعلوا هذه الكتب الصفر طعمة للنيران . وقد أكون أحد الذين دعوا قبل سنوات إلى حرق الكثير من هذه الكتب ، لأنى اعتقدت ، فى يوم ما ، أنها تعوق تطورنا الفكرى ،

وهو اعتقاد خاطئ دون شك . لأن كتبنا القديمة ليست كلها عديمة الفائدة ، وإلا نكون حكمنا على التراث العربي كله حكماً قاسياً ، وجردنا الحضارة العربية التى رسم خطوطها الكتاب والشعراء والفلاسفة من أبدع قيمها الفكرية. وهذا عقوق للتاريخ وللفكر معاً.

هذا التراث الضخم الذى تركه الأوائل والذى لا يزال أكثره مغموراً تحت سجف النسيان ، والذى التفت إليه المستشرقون قبل أن نلتفت إليه هو الذى نريد أن نبعثه حياً لأنه من البذور الأولى فى نمو نهضتنا الفكرية الحاضرة التى لن يكفيها أن تقوم على دعائم الثقافة الغربيـة ، بل لا بدّ أن تمد يدها إلى هذا الماضى المملوء بالثروات والـكنوز والاستفادة مما تحويه من فيض وخير وجمال .

فما هى وسائلنا لبعثه ؟ وكيف ندنيه من أذواقنا وأفهامنا ؟

لقد عرض لهذه الناحية أكثر من أديب واحد .

وأجاب الأستاذ أمين الريحانى بقوله :

« الأمة العربية اليوم فى يقظةٍ قومية عامة ، ولـكنها لا تزال مشتتة الـكلمة ، متقطعة الأوصال ، مختلفة الأهداف والآمال . وما يؤسس فيها من معاهد وجمعيات لإحياء ثقافتها القديمة ، والأصح أن يقال لإحياء الصالح لهذا الزمن من ثقافتها

القديمة — لا تدوم ولا تعمّ فوائدها إن لم تعضدها الحكومات العربية وتمهد لها سبل النشر والدعاية »

ثم قال :

« إنى أرتئى أن يعقد مؤتمر ثقافى عربى عام فى مصر أو فى لبنان تبحث فيه الثقافات العربية القديمة العلمية والعملية والأخلاقية ويقرر ما ينبغى أن تقوم به كل حكومة عربية من الأعمال لإحياء الصالح منها لزماننا . وينبغى أن يكون برنامج العمل واحدًا فى كل الأقطار وكل الحكومات العربية . وإلاّ فالفوضى القائمة اليوم تستمر وتزداد ولا تفلح إلى جانبها الأعمال الفردية والإقليمية مهما عظم شأنها » .

وحدّد الدكتور هيكل شكل الإحياء العربى ، أى إحياء المؤلفات العربية القديمة فى العصور المختلفة ، بقوله :

« . . إن علينا أن نجعلها فى ثوب من تفكير هذا العصر الذى نعيش فيه ، مع ربط الحاضر بالماضى من ناحية الثقافة ، والاستفادة إلى ذلك من علم الغرب أو حضارته لتكون بيننا وبينه رابطة لم يبق مفر منها بعد أن وصلت المخترعات الحديثة بين أجزاء العالم بأوثق صلة وأسرعها » .

ثم أضاف إلى ذلك قوله :

« ومن الضرورى أن يقوم الإحياء على دراسة الكتب وتلخيصها وصوغها فى أسلوب حديث على الطريقة التى ألفها الناس فى زمننا، هذا وتقريبها إلى الأذهان، وتيسير قراءتها على المثقفين كافة».

هذه هى الطرق التى ارتآها كبار كتابنا وأدبائنا. فكتب الغزالى مثلاً، نستطيع أن ننشر منها بعض نماذج حية من أدبه النفسى غذاءً روحيًّا شهيًّا لطلاّب المدارس الثانوية. ثم ننشر بعض هذه النماذج بصورةٍ أوسع لطلاب الصفوف العالية ولتلاميذ الجامعات، ثم ننشر كتبه فى التصوّف والفلسفة وعلم النفس بنصها الكامل مع الشروح المقتضية لها. وهكذا، مع أكثر الكتب التى وضعها مفكرو العرب فى عصورهم المزدهرة.

ولكى يتحقق مشروع الإحياء، وقد بدأت به بعض المعاهد الثقافية وبعض الأدباء، يجب أن نحصر عملنا فى ثلاثة أمور:

(١) فى البحث عن المخطوطات المضيعة والمدفونة فى الخزانات الخاصة، وفى خزانات المدارس والمساجد «والتكايا» وفى خزانات المكاتب العامة، فى الشرق وفى الغرب.

(٢) فى دراستها وتصنيفها ونشر أهمها والأكثر فائدة منها وإلصاقها بنهضتنا الفكرية.

(٣) فى إعادة نشر أنفس كتبنا القديمة المطبوعة الأدبية

والتاريخية والفلسفية ، بطريقة المستشرقين لا بهذه الطريقة المعوجة التى أضحكت منا المستشرقين . فنشر الكتب عندنا ، كما يقول الدكتور طه ، عبارة عن نسخ الكتاب ليس غير ، وهو تكرار لنسخة مخطوطة نظفر بها فنريد أن نكررها ونذيع منها صوراً كثيرة بين الناس ، على ذلك مضينا منذ بدأنا نشر الكتب ولم نكد نتجاوز هذا الطور إلاّ قليلاً ، على حين أخذ الأوربيون من قبلنا ينشرون أدبنا العربى نشراً علمياً صحيحاً دقيقاً محققاً بمقدار ما سمحت لهم ظروفهم الخاصة ، فكانت الكتب التى نشروها أقوم جداً وأدنى جدّا إلى النفع والفائدة والصواب من الكتب التى نشرناها . ويكفى أن ننظر لتاريخ الطبرى الذى أذاعه الأوربيون والذى أذعناه نحن لنتبين ما بينهما من الفرق المؤلم العظيم . وأغرب من هذا وأدعى إلى الحزن أن قومًا منا اتخذوا نشر الكتب تجارة ، وليس بذلك بأس ، ولكنهم جعلوا الغش والتدليس والإهمال قوام تجارتهم ، أو أن كتباً نشرها الأوربيون محققة مدروسة فنشروها فى غير درس ولا تحقيق ، وانتهوا بها إلى لونٍ من الفساد يراه الأوربيون فيحنقون ويسخرون ويزدرون ، وأغرب من هذا أن كتباً أخرى سبقنا نحن إلى نشرها على طريقتنا المملّة فتداركها الأوربيون بالتنقيح ووضع الفهارس » .

هذه هى طريقتنا فى نشر الكتب ، وهى طريقة مزرية بل معيبة وهـذا الذى يهيب بنا أن نعالج مشكلة النشر بطريقة المستشرقين ، بعد أن ننقذ تراثنا الثمين من أيدى الوراقين الجهلاء وبعض المعمَّمين الخبثاء الذين أغاروا على المخطوطات الثمينة فاستغلوها بما يعود عليهم بالربح وعلى نهضتنا بالخزى والعار .

وقد آن الوقت لأن تهتمّ الحكومات العربيـة ووزارة المعارف والجامعات بهذه المهمة الثقافية الكبرى ، فهى التى تستطيع أن تمهِّد لماضينا الذهبى أن يكون ماثلاً أمامنا بشكله المقبول المحبَّب لا بشكله المزرى المنفر — هذا الماضى الذى يفيض بالعلم والفلسفة والأدب ، والذى يؤرخ أطوار الفكر العربى فى الكثير من مراحله ، والذى لا يمكن إنكاره مهما حاول البعض أن يقلل من قيمته ومن جماله .

لقد فتح لنـا المستشرقون الباب على مصراعيه ، وقامت باريس ولندن وليدن وليبزيج وبتروغراد ومدريد وروما منـذ خمسين سنة أو أكثر بنشر أثمن هذه الكنوز . أفما جاء دور القاهرة ودمشق وبغداد والمدن العربية الكبرى لتقوم بهذه المهمة الثقافية الخطيرة ؟

نريد أن نعتقد أن الوقت قد حان .

البلديات عند العرب

إن الناظر فى أصول الحسبة فى الحكومات الاسلامية السالفة ، يعلم أن أجدادنا هيأوا لمدنهم وسكانها جميع ضروب الراحة والهناء ، وحاولوا أن يبعدوا عنها ما أمكن الجور والشقاء . والحسبة بالكسر الأجر ، وهو اسم من الاحتساب أى احتساب الأجر على الله ، تقول فعلته حسبة ، واحتسب فيه احتساباً ، والاحتساب طلب الأجر . وكانت الحسبة وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى هو فرض على القائم بأمور المسلمين ، يعين لذلك من يراه أهلا له ، فيتعين فرضه عليه ، ويتخذ الأعوان على ذلك ، ويبحث عن المنكرات ، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة ، مثل المنع من المضايقة فى الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الاكثار فى الحمل ، والحكم على أهل المبانى المتداعية بهدمها ، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة ، والضرب على أيدى المعلمين فى الكتاتيب وغيرها ، من الابلاغ فى فى ضربهم للصبيان المتعلمين

قاله ابن خلدون

« البلدية » بلفظها المتداول اليوم لم تكن معروفة فى الماضى بهذا الاسم ، بل كان يطلق عليها وعلى غيرها من الشؤون اسم « الحسبة » ، وكان المحتسب كأنْ تقول : رجل تجمّع فيه سلطات ثلاث : كان يجمع سلطة رئيس البلدية ، وسلطة مدير الصحة ، وسلطة مدير الشرطة معاً . وظلّ المحتسب يقوم بمهمته فى البلدان الإسلامية حتى أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يبطل هذا النظام إلّا بظهور « نظام البلديات المنقول عن أوضاع الغرب فى القرن الماضى »[1] . واعتبرت الحسبة فى عهد الخلفاء « من قواعد الأمور الدينية ، يباشرها أئمة الصدر الأول بأنفسهم ، لعموم صلاحها وجزيل ثوابها[2] » وقد تطورت الفكرة على مدى العصور ، حتى أصبح المحتسب ذلك الرجل الذى يمارس شؤون البلدية بكثير من التوسع .

وقد ألّف العرب فى هذا الموضوع عدة كتب لعلّ أظهرها كتاب « معالم القربة ، فى أحكام الحسبة » لمحمد بن محمد بن أحمد المعروف بابن الأخوة القرشى ، الذى نشره المستشرق الإنكليزى المستر روبن ليوى أستاذ الأدب الفارسى فى جامعة كمبردج

---

(١) مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق المجلد ١٢ ص ٥٢

(٢) معالم القربة ص ٣

بعد أن نقله إلى الإنكليزية ، وطبعه فى لندن بأصله العربى وترجمته الإنكليزية .

وقبل أن أصف الكتاب ، وقبل أن أتحدث عن موضوع البلديات عند العرب ، أريد أن أعرض بكلمات موجزة لأعمال المستشرقين .

فما من ريب أن أنفس كتبنا هى اليوم فى خزائن المستشرقين ، أو فى المكتبات الأوربية العامة . وإذا كنا نلوم أحياناً بعض الورّاقين فى بيعهم هذه الكتب بأثمانٍ بخسة أو باهظة للأجانب ، فمما لا شك فيه أن وقوعها بأيدى المستشرقين قد عاد بالخير على هذه الكنوز التى لا يعلم إلّا الله ما كان مصيرها لو ظلّت بين أيدى الورّاقين الجهلة ، أو ظلّت محبوسة فى مكتبة غنىّ من السراة ، لا يعرف أن ينتفع بها ، ولا يمهّد الطريق لغيره فى نشرها بين الناس للانتفاع بمضمونها .

لقد قام المستشرقون بنشر أمهات الكتب العربية ، المخطوط منها وغير المخطوط ، نشراً علمياً ، وطبعوها أحسن طبع ، وأضافوا إليها المسارد والتعاليق والشروح ، بعد أن راجعوا عشرات الكتب ومئات المستندات ، للتثبت من كلمةٍ واحدة إذا رأوا فى الكلمة ما يغيّر أصل النصّ أو يحرّف معناه . وبذلك

حفظوا لنا بعض هذا التراث الذى لو بقى بين أيدى الجهلة لظلّ ملقًى فى مكتباتهم دون أن نستفيد من ثمرات هذه الكنوز شيئاً . وليس من الإنصاف أن نعتبر — كما يذهب البعض — أن جميع أعمال المستشرقين ذات أغراض استعمارية . فقد قام جدل قبل سنوات بين كتابٍ مصريين أضرر المستشرقين أكثر من نفعهم أم الأمر بالعكس ، وهل استشراقهم للعلم الخالص أو لغايات سياسية ؟ فدافع الدكتور زكى مبارك عنهم بتحفظ ، وشك الدكتور الهراوى فى نيّاتهم العلمية . على أننا نقول إنه لا يخلو البعض من جعل مباحثه وقفاً على خدمة أمته ونزعاتها فى التوسع . ولكن المرجح أن فئة غير قليلة درست الشرق ووضعت المباحث الإسلامية للعلم الخالص . وليس معنى هذا أن « السياسة » من الغفلة بمكان بحيث لا تستثمر نصوص العلم ودراسات العلماء لمنافعها وأغراضها الاستثمارية . وهـذا موضوع يحتاج إلى توسعٍ أكثر ، وليس هنا مجال الخوض فيه .

ونعود الآن إلى موضوعنا ، وهو هل عرف العرب مهمة البلديات وهل مارسوها عمليًّا ؟ وجوابنا أنهم عرفوها ومارسوها وكتبوا فيها المطولات . ولأتناول الكتاب الذى أشرت إليه بالوصف الموجز مع إجمال بعض فصوله ، وسيجد القارئ مدى ما وصل

إليه العرب فى هذه الشؤون حين استفاضت حضارتهم، وما كانت عليه ثقافتهم من وعى أصول الحكم .

فكتاب «معالم القربة» هو أصدق مرجع لمن يتقلد منصب المحتسب ، جمع فيه المؤلف كل الأنظمة التى تتعلق بأمور البلديات، وإلى هذا أشار فى المقدمة التى اختتمها بقوله : « وقد رأيت أن أجمع فى هذا الكتاب من أقاويل العلماء مستندًا به إلى الأحاديث النبوية ما ينتفع به من استند لمنصب الحسبة ، وقلّد النظر فى مصالح الرعية ، وكشف أحوال السوقية وأمور المتعيشين ، على الوجه المشروع ، ليكون ذلك عمادًا لسياسته ، وقوامًا لرئاسته ، وجعلته سبعين بابًا يشتمل كل باب على فصولٍ شتى[1] » .

ومن الصعوبة بمكان أن نسرد فى هذا الحديث كل الأبواب التى دوّنها ، بل نشير إلى بعضها مما له علاقة بموضوعنا ، فلو أخذنا نسرد خلاصة أبواب الكتاب لاحتجنا إلى صفحات كثيرة ، لأن المؤلف لم يترك مهنة ولا صناعة إلاَّ خصها ببحثٍ مطول . نعم ، من الصعب أن أعرض لما اشترطه المؤلف من شروطٍ على كل صناعة ، وما دوّنه من الأحكام والنظامات التى كانت مفروضة على الفرانين والخبازين والجزارين والطباخين والبزازين والصباغين

(١) معالم القربة ص ٣ .

والأساكفة والبياطرة والحمامات والمزينين ، وعلى الأطباء والمنجمين ، وعلى أصحاب السفن والمراكب ، وعلى معاصر الزيت والدباغين وعلى النجارين والمدهنين وغيرهم وغيرهم — بل حسبي أن أعرض عرضاً شاملاً لبعض النقط لأصل إلى النتيجة التى أردتها من هذا البحث .

فلقد خصّ الباب الثامن مثلاً بالكلام على « منكرات الأسواق » فشرح هذه الناحية بقوله : « . . . أما الطرقات الضيقة فلا يجوز لأحدٍ الجلوس فيها ولا إخراج مصطبة دكان عن سمت أركان السقائف إلى الممرّ الأصلى ، لأنه عدوان ويضيّق على المارة ، فيجب على المحتسب إزالته والمنع من فعله ، لما فى ذلك من لحق الضرر بالناس » وقال : « . . ولا يجوز إخراج الفواصل والأجنحة وغرس الأشجار ونصب الدكك فى الطرق الضيقة . ويمنع ربط الدواب على الطرق » ويعلّل ذلك بقوله : « إنّ الشوارع مشتركة المنفعة ، وليس لاحدٍ أن يختصّ بها إلاّ بقدر الحاجة » .

ثم يعدد الأمور الممنوعة فى الطرق ، فيقول : « ويمنع طرح الكناسة على جوار الطرق وتبديد قشور البطيخ أو رش الماء بحيث يخشى من التزلق والسقوط — (وهذا يدلنا على أن الشوارع كانت مبلّطة بالحجر) — ويمنع إرسال الماء من الميازيب

المخرجة من الحائط إلى الطرق الضيقة » . وهذه التعاليم من الأمور التى نصت عليها أنظمة البلدية فى عصرنا الحاضر ، وعاقبت المخالفين بغرامات صارمة .

ولقد وصلت هـذه التعاليم إلى أن ناطتْ بالمحتسب أن يفرض سلطته الواسعة على مَنْ شاء لمنع كل ما يضرّ المارة ، وأن يطلب حتى من حَمَلَةِ الحطب والشوك مثلاً أن يشدوا هـذه الأحمال ويضمُّوا بعضها إلى بعض بحيث لا تمسّ أحد المارين ولا تمزّق ثوبه .

ولجمعيات الرفق بالحيوان فى عصرنا هذا أن تضيف إلى أنظمتها هذه المادة التى كان يفرضها المحتسبون فى العصور الإسلامية ، فقد منعوا أصحاب الأحمال الثقيلة وغير الثقيلة أن يتركوا هذه الأحمال على ظهور الدواب حين تقف فى العراص ، لأنها إذا وقفت والأحمال عليها أضرتها ، وكان ذلك تعذيباً لها » . كذلك بنيت الأحواض المائية لشرب الدواب فى الشوارع العامة ، وهذا منتهى الرفق بالحيوان الأعجم ، فقد روى المقريزى[1] فى عدة مواضع عند كلامه على خطط القاهرة ورحابها أنه كان بها أحواض لشرب الدواب كما هو الآن بالميادين العمومية ، فمنها

(١) « أغرب صفحات التاريخ الاسلامى لعبد الفتاح عبادة » الهلال ج ٢٧ ص ٣١٧

ما ذكره عند كلامه على رحبة قره سنقر، فقد قال : « وهذه الرحبة تجاه دار الأمير قراسنقر وبها الآن حوض تشرب منه الدواب »[1]

ولا يستغرب القارئ وجود ذلك عند العرب . فقد كان عندهم من النظم الاجتماعية والأساليب والرسوم العمرانية ما يشابه أحدث الطرق والأساليب المتَّبعة الآن . فقد تنبَّه العرب إلى خطر الكلاب الضالة فى المدن، فأمر الحجاج بتسميمها وإبادتها من « واسط » وتابعه على ذلك غيره من ولاة الأمصار كما تعمل الحكومة اليوم ، وكان اتقاء الحريق وإنارة المدن وكنسها ورشها وخفارتها من الرسوم المفروضة على الجميع ، ولا يلغى إلا بأمانٍ مكتوب من السلطان يقرأ على الناس . فمن رسوم أرباب الحوانيت لاتقاء الحريق أن يعدّوا عند كل حانوت زيراً مملوءاً بالماء مخافة أن يحدث الحريق فى مكان فلا يطفأ بسرعة ، ثم كان يُلزم صاحب كل حانوت بأن يعلّق على حانوته قنديلاً طول الليل يسرج إلى الصباح .

أما الكنس والرش والخفارة فتقام طائفة من العمال يكنسون الأزبال والأتربة ونحوها من الطرق ، ويرشون الماء كل يوم ، ويجعل عددٌ من الخفراء فى كل جهة يطوفون فى الطرق لحراسة

(١) المقريزى ج ٢ ص ٥١ .

الحوانيت وغيرها طول الليل . أما اصلاح الشوارع فيتعهد كل فريق بنزع ما عساه تربى من الأوساخ فى الطرقات حتى لاتعلو الشوارع [١] . وكانت تصدر بذلك المراسم من الخلفاء فتنفذ بكل دقة واهتمام . فمن ذلك ما للعزيز بالله والحاكم بأمر الله من خلفاء الفاطميين من الأوامر بنصب أزيار الماء مملوءة على الحوانيت ، ووقود المصابيح على الدور وفى الأسواق ، وإيقاد القناديل فى سائر البلد على المحال والمساكن والسكك الشارعة . وقد باشر الخلفاء بأنفسهم تنفيذ أوامرهم هذه ، فلازم بعضهم الركوب فى الليل إلى كل موضع وشارع وزقاق [٢] « وقد تناظر الناس لذلك فى الوقيد ، واستكثروا منه فى الشوارع والأزقة ، وزينت القياسر والأسواق بأنواع الزينة ، وصار الناس فى القاهرة ومصر طول الليل فى بيع وشراء . وأكثروا أيضاً من وقود الشموع العظيمة . . . [٣] » .

ولنبحث الآن فى سلطة المحتسب نَرَها تتناول كل شىء . حتى الباعة الذين لا يتحرون الدقة فى الموازين والمكاييل ، فهو يأمرهم بمسحها وتنظيفها من الأدهان والأوساخ فى كل ساعة إذ ربما تحمل شيئاً فى خرمها فيضرّ . وينبغى إذا شرع

---

(١) المقريزى ج ٢ ص ١٠٧ (٢) « أغرب صفحات التاريخ الاسلامى » الهلال ج ٢٧ ص ٣١٨ (٣) المقريزى ج ٢ ص ١٠٨

فى الوزن أن يسكّن الميزان ، ويضع فيه البضاعة من يده فى الكفة قليلاً . ولا يهمز بإبهامهِ فإن ذلك كله بخس . وينتهى إلى أوامر ونواهٍ فى غاية الدقة لمنع الغش سواء فى الموازين أو فى المقاييس أو فى المكاييل .

وفى الفصل الحادى عشر من كتاب ابن الأخوة القرشى تعليمات دقيقة وأوامر صارمة تتناول الطحانين وتحذرهم من خلط ردىء الحنطة بجيدها وعتيقها ، وضرورة غربلة الغلة من التراب وتنقيتها من الطين وتنظيفها من الغبار قبل طحنها .

وثمة تعليمات فى الباب الثانى عشر خاصة بالفرانين والخبّازين وما يجب عليهم عمله من رفع سقائف أفرانهم وعمل منافس واسعة للدخان مع كنس بيت النار فى كل تعميرة وغسل المعاجن وتنظيفها ، ويمنع المحتسب العجّان أن يعجن بركبته أو بمرفقيه لأن ذلك مهانة للطعام ، وربما قطر فى العجين شىء من عرق إبطيه أو بدنه . ولا يبيح له أن يعجن إلاّ وعليه ملعبة ضيقة الكمين ، وأن يكون ملثماً لأنه ربما عطس أو تكلم فقطر شىء من أنفه[1] .

ولا نغلو إذا قلنا إن بلديات أكبر مدن العالم لم تحتط هذا

(١) فى الأصل : فقطر شىء من بصاقه أو مخاطه .

الاحتياط فى حرصها على النظافة التى لحظها العرب فى ازدهار حضارتهم .

فإذا انتقلنا إلى الباب السادس عشر ، وقرأنا هذه التعليمات التى دونها بخصوص الجزارين رأينا العجب ، فالمحتسب ، أى رئيس البلدية ، لا يكتفى بمنع الجزارين من الذبح على أبواب دكاكينهم للأضرار التى تنشأ من تلويث الطرق بالروث والدم ، بل يكلفهم أن يذبحوا مواشيهم فى المذابح — وهذا يدلنا على أن المذابح العامة كانت موجودة عند العرب فى العصور الإسلامية — ويحتم عليهم أن يتحاشوا الغش وأن يفردوا لحوم المعز عن الضأن وألّا يخلطوا بعضها ببعض وأن ينقطوا لحوم المعز بالزعفران ليتميز من غيره ، وأن تكون أذنابها معلقة على لحومها إلى آخر البيع .

ويطول بنا الكلام لو أخذنا نسرد هذه التعاليم أو هذه النظامات التى كان يرجع إليها المحتسب فى ممارسة حقه فى هذه الشؤون الحيوية التى لها علاقة مباشرة بتنظيم المدن وفتح الجوادّ وإنشاء الحدائق وفرض النظافة ومراقبة الباعة والسهر على تخفيف البؤس عن الفقراء وإعانة المحتاجين ، ومئات المهمّات العمرانية والصحية والإدارية التى يتطلبها جمال البلدان ورفاهة السكان .

* * *

والآن نتساءل ما هى الغرامات التى كان يفرضها المحتسب على المخالفين ؟

لا ريب أنها كانت غرامات باهظة ، لأن من يعنى بدقيق هذه القضايا وجليلها لا بدّ من أن يفكر فى العقوبات التى تصونها ، ويشرح لنا المؤلف فى أحد فصول الكتاب لون هذه العقوبات . وهى غير العقوبات التى تفرضها الأنظمة الحديثة فى عصرنا هذا ، أى الغرامة النقـدية أو الحبس حين لا يستطيع المخالف دفع الغرامة النقدية . فالعقوبات فى تلكم العصور لونٌ من الزجر أو ما هو أشدّ من الزجر ، ويمارس هذا الحق رئيس البلدية أو المحتسب ، ذلك الرجل الصارم الإرادة ، المهيب الجانب ، المسموع الكلمة ، والذى يلازم الأسواق بنفسه ، فيركب دابته فى كل وقت ، ويدور على السوقة والباعة ويكشف حالة الدكاكين والطرقات ، ويتفقد الموازين والأرطال ، ويراقب الأطعمة وما يمكن أن يكون منها مغشوشاً . يفعل ذلك فى الليل وفى النهار ، وفى غفلةٍ من الباعة . وقد يقوم بهذه المهمة وحده أو مع الرسل والغلمان والأعوان ، وهم الجلاوزة والشرطة ، حتى إذا شاهد أية مخالفة قمعها بالزجر الممزوج باللين ، فإذا لم يرتدعوا بهذا الإنذار استعمل السوط . ويصف المؤلف السوط بأنه وسط ، أى ليس

بالغليظ الشديد ولا بالرقيق اللين ، بل يكون من قسطين حتى لا يؤلم الجسم . وإذا لم يقم السوط بردع المخالفين فهناك « الدِّرّة » وهى آلة مخروزة من جلد البقر أو الجمل تعلّق على دكة المحتسب ليشاهدها الناس « فترتعد منها قلوب المفسدين ، وينزجر بها أهل التدليس » على رواية المؤلف .

هذه هى العقوبات التى تبدأ بالنهى ، ثم بالوعظ ، ثم بالردع والزجر ، وأخيراً باستعمال السوط لتطبيق أنظمة البلدية بصورةٍ جدّية .

ويحدثنا المؤلف عن الصفات التى يجب أن يتميز بها جلاوزة البلدية ، فيشترط فيهم العفة والصيانة والشهامة ، ويشترط على المحتسب أن يؤدبهم ويهذبهم ، ويعرفهم كيف يتصرفون بين يديه وكيف يخرجون فى طلب الغرماء .

هذه إلمامة موجزة عن فكرة البلديات عند العرب ، وطرق ممارستها فى العصور الإسلامية الزاهرة . ونتساءل فى ختام بحثنا هذا : متى بدئ بتطبيق الحسبة عمليًّا ؟

يجيب المستر ليفى ناشر الكتاب بقوله :

« حينما بلغ النظام الإسلامى درجة النفوذ فى الأمة أصبح من اللازم تطبيق الإطاعة لأوامر الدين ونواهيه . لقد كان هذا العمل

فى صدر الإسلام من شأن الخلفاء شخصيًّا ، وكان يقوم به أحيانًا أشخاص آخرون شعروا من تلقاء أنفسهم أنهم مدعوّون لتوطيد أركان الدين . ولما اتسع المجتمع الإسلامى نيط هذا الواجب رسميًّا بأوتاد الحكومة . ولكن المرجح أن وظيفة الحسبة لم تنشأ إلّا بعد قيام مدارس الفقه حوالى أواخر القرن الثانى للهجرة . عندئذٍ أصبحت كتب الفقه تحتوى على بعض الفصول المتعلقة بنظرية الحسبة وتطبيقها العملىّ ، وبمرور الزمن ظهرت عدة كتب مستقلّة لمساعدة المحتسب فى القيام بواجباته » .

وأقف عند هذا الحدّ ، لأَخلص من بحثى إلى النقطتين الآتيتين :

(١) إلى الثناء على الناشر والإشادة بقيمة الكتاب الذى تحدثت عنه والذى يضم إلى صميم موضوعه ، كما يقول : موادّ مبتكرة تعطينا صورة حية عن حياة المدن الإسلامية فى القرون الوسطى بأسواقها ومخازنها ومساجدها وحماماتها ، حتى يخيَّل للقارئ أن مؤلفه من المعاصرين ، وأنه قضى شطراً غير قليل من حياته فى المدن الأُوربية الكبرى .

(٢) الإشارة إلى ازدهار حضارة العرب . إذ من المتفق عليه أن عناية الأُمم بعمران بلدانها ونظافة مدنها هى لون من فيض

الحضارة . وبديهى وقد ورث العرب مدنية الرومان واليونان ، وأخذوا من الهنـد والفرس كل ما لديهم من ذوق وفن وصناعة وطراز حياة وصبغوه باللون العربى — بديهى أن تكون شؤون البلديات من أبسط الأمور التى يهتمون بها ، وهذا الذى جعلهم يدوّنون فى هذه القضايا بعض الكتب ، فتحتفظ المكتبة العربية بهذه النصوص التى يصح أن ترجع إلى بعضها — ولا غضاضة — بعض المدن الكبرى فى عصرنا هذا .

مصر والوحدة العربية

« إن الجامعة العربية لأكبر وأوسع وأكرم من أن تكون جامعة لحم ودم وقرابة عمومة أو خؤولة . . إنما هى جامعة ثقافة ولغة وعقيدة ورجاء ، وماذا يضيرها ، وهى كذلك ، أن يكون فيها مصريون وعراقيون وسوريون وحجازيون ؟ لن يضيرها ذلك شيئاً ! وإنما يضيرها أن تتنافر على التاريخ وتتنابذ بالأصول وتنسى أن المستقبل هو الأمل المطلوب ، وأن الذى يجمعه الرجاء لا تفرقه الذكريات »

عباس محمود العقاد

فكرة الوحدة العربية التى يبحثها الكتاب بكثير من الحماسة ويعمل على خلقها ساسة العرب ، هى فكرة قديمة فى وسعنا أن نقول إن مؤسس الدولة المصرية محمد على باشا قد حاولها قبل قرنٍ تقريباً . فهذا الرجل العصامى الذى لم يكد يجلس على أريكة مصر ويقضى على نفوذ المماليك ويقطع علاقاته مع الباب العالى ، حتى مدّ بصره إلى البلدان العربية التى تتألف منها الوحدة الكبرى. فمصر وفلسطين وسورية والعراق وما إليها من المقاطعات

التى تنتظمها جزيرة العرب بلاد تحسّ إحساسًا واحدًا ، وتشعر شعورًا واحدًا ، وتتكلم بلغةٍ واحدة ، وتدين أكثريتها المطلقة بدين واحد . . وقد كانت فى ماضيات الأيام ذات وحدةٍ شاملة وضمن كيان واحد ، فلِمَ لا تعود سيرتها الأولى ، ولا سيما فى هذا العصر الذى يتسم بسيماء القومية الشاملة ؟ فى هذا فكر محمد على ، وعلى هذا الأساس أرسل ابنه إبرهيم باشا على رأس جيش كبير ليحقق هذه الفكرة عمليًّا . ومن الغريب أن أكثر الذين عرضوا لتاريخ محمد على لم يجلوا غوامض هذه الناحية ، مع أنها جديرة بالدرس وبكثير من التمحيص . بل إن بعض الكتاب المصريين ذهب إلى أن فتوحات محمد على وابنه إبرهيم لم تكن لمجد مصر أو لمجد الإسلام ، بل كان يقصد منها مجد أسرة لا مجد أمة ! . .

فى الواقع ، أن محمدَ علىٍّ لم يقصد « الإمبراطورية العربية » لذاتها ، بل إن طبيعة الحوادث التى جابهته هى التى جعلته يفكر فيها ويحاولها عمليًّا . فضعف مركز الخلافة ومطامع الدول فى الامبراطورية العثمانية ، وخصوصاً مع السلطان . وانتصاراته الحاسمة فى بلدان العرب هى التى حفزته ألّا تقف آماله عند حدود مصر ، بل تمتدّ إلى الآفاق العربية ، وأن يفكر فى إنشاء دولة

إسلامية عربية جديدة تقوم على أنقاض الدولة العثمانية التى دبّ الهرم فى أوصالها وعراها الذبول ! . .

* * *

وكل متتبع لتاريخ مصر يذكر تلك الحملة الكبرى التى قام بها إبرهيم باشا المصرى إلى لبنان وسورية وقسم كبير من الأناضول . لقد كان ذلك سنة ١٨٣٢ أى منذ مئة سنةٍ ونيف . . ولا نريد أن نقصّ هنا حوادث التاريخ ، فنظرة صغيرة إلى الماضى القريب ترينا أية مغامرة هذه التى قام بها إبرهيم باشا وأى نصر بيّنٍ كتب له ، بل أى فوز حالفه . لقد فتح فلسطين ولبنان وسورية ، وغزا قلب الأناضول حتى كاد يركز العَلَم المصرى على ضفاف البوسفور . تلك الحوادث ترسم بوضوح نفسية المصرى قبل مئة عام ، النفسية المغامرة التى تتطلع إلى الفتح والتوسع والنضال

* * *

قدمت هذه التوطئة لأدلّ على أن مصر ليست بعيدة عن هذه المرامى العربية ، وأن « الفرعونية » التى نادى بها بعض الكتاب هى ضرب من الخيال . ولا ننكر من جهة ثانية ، أنها تراث قومى ، فُسرت فى البلاد العربية على غير حقيقتها . وسأعود

إلى معالجة هذه الفكرة بعد أن أعرض لآراء مؤسس الدولة المصرية فى الوحدة العربية

يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك فى كتابه « تاريخ الحركة القومية[1] » :

« من الراجح الذى تؤيده الحوادث أن مشروع محمد على كان يتناول إنشاء دولة عربية مستقلة فى مصر تضم إليها البلاد العربية فى إفريقيا وآسيا ، ففى إفريقيا قد استقل بمصر وفتح السودان ، وفى آسيا فتح معظم جزيرة العرب ، وبسط عليها نفوذ الحكومة المصرية ، وبطموحه إلى سوريا أراد أن يؤسس الدولة المصرية الكبرى » .

وقد أورد البارون « لبو الكونت » الذى لَقِى إبرهيم باشا بالقرب من طرسوس سنة ١٨٣٣ بعد عودته من كوتاهية حديثاً سياسيًّا خطيراً حول هذه الفكرة خلاصته: « أن إبرهيم باشا يجاهر علناً بأنه ينوى إحياء القومية العربية ، وإعطاء العرب حقوقهم وإسناد المناصب إليهم سواء فى الإدارة أو فى الجيش ، وأن يجعل منهم شعباً مستقلاً ، ويشركهم فى إدارة الشؤون المالية ، ويعوّدهم سلطة الحكم كما يحتملون تكاليفه . وتتجلّى فكرته هذه

(١) ج ٣ ص ٢٣٣

فى منشوراته ومخاطباته لجنوده فى الحرب الأخيرة السورية . فانه لا يفتأ يذكرهم بمفاخر الأمة العربية ومجدها الخالد . ويتصل بهذا المعنى مجاهرته (بأن كل البلدان العربية يجب أن تنضم تحت لواء أبيه) وقد قال لى : إن أباه يحكم مصر والسودان وسورية ، ومن الواجب أن يضمّ العراق إلى حكمه ، وإن جزيرة العرب تابعة لأبيه الذى يعمل الآن على إتمام فتحها ، وهو فى صلاته مع أهل البلاد يستخدم اللغة العربية ، ويعدّ نفسه عربيًّا ، ولذلك لا ينفك يطعن فى الأتراك ، وقد لاحظ عليه أحد جنوده وخاطبه بتلك الحرية التى كان يشجّع رجاله عليها وسأله : كيف يطعن فى الأتراك وهو منهم ؟ فأجابه إبرهيم باشا على الفور :

[أنا لست تركيًا ، فإنى جئت مصر صبيًّا ، ومنذ ذلك الحين قد مصرتنى شمسها وغيّرت من دمى وجعلته دماً عربيًّا]

وكتب اللورد پامرستون وزير خارجية إنكلترا إلى السر ويليام كامبل سفير إنكلترا فى كابل كتاباً نقتطف منه الجملة الآتية :

« لقد كان محمد على يرمى إلى تأليف مملكة عربية تجمع بلاد العرب ، والمشروع جليل الشأن بذاته ، لولا أنه يقضى بتقسيم تركيا ، وهذا لا يمكننا أن نسلّم به ، فتركيا أفضل دولة تملك طريق الهند

وهى خير من أى ملك عربى يقوم على هذه البلاد ويكون نزاعاً إلى العمل كثير الحركة » .

وكتب مترنيخ وزير خارجية النمسا وقتئذٍ بعد اطلاعه على كتاب بوغوص بك نوبار الذى كان يتولى إدارة ديوان الخارجية فى حكومة محمد على — إلى قنصل مصر بخصوص الخلاف بين الباب العالى ومحمد على يقول :

« إننا نستنتج من اعتراف محمد على أنه يريد أمرين : استقلاله التام عن الباب العالى ، وإنشاء الدولة العربية »

وهناك نصوص كثيرة تثبت أن فكرة إنشاء الدولة العربية فى عهد محمد على قد بحثت بحثاً جديًّا وشبه رسمىّ ، وكانت مثار مخاوف الدول ، لا سيما بعد أن اختمرت الفكرة فى ذهن محمد علىّ وابنه إبرهيم .

وقد تجلَّت مراميها السامية فى حَدَبها الأكيد على القضية الفلسطينية واحتضانها الفكرة العربية حقيقةً لا يمكن إنكارها ، وكان اجتماع أمراء العرب ورجال السياسة فى مصر[1] توطئةً

(١) دعت حكومة مصر سنة ١٩٣٨ الحكومات العربية للتداول فى القضية الفلسطينية ، وقد لبت جميع الحكومات الدعوة ، وعقد مؤتمر طرحت فيه القضية الفلسطينية على بساط البحث ، واتخذت قرارات خطيرة بضرورة حلها وصون حقوق العرب فى هذا القطر الشقيق ، وكان من وراء ذلك أن بحث المندوبون ، وكلهم من زعماء البلاد العربية ، فكرة الوحدة العربية فى مباحث وخطب غير رسمية

لوضع الحجر الأساسى لتكوين جامعة دولية من الأقطار العربية .
وإلى هذا أشار رئيس حكومة العراق آنئذٍ بقوله :

« إننا وإن دعتنا مصر العزيزة للنظر فى أمرٍ معين ، إلا أن شعورنا يدفعنا إلى أن نأمل فى أن يكون اجتماعنا التاريخى هـذا احتفالاً بوضع الحجر الأساسى لتكوين جامعة دولية من الأقطار العربية والشرقية الممثلة هنا ترمى إلى غاية إنشائية سليمة ، شاملة غير هدامة ، تقوم على أساس إحقاق الحق وتوطيد العدل ورفع الظلم عن هذه الأقطار ، وتنهض بالتعاون والتآزر إلى ما تصبوا إليه ، وليس من وراء هذه الغاية تهديد لأحد » .

وردّ الأمير سيف الإسلام الحسين بكلمةٍ أكَّد فيها أن هذا الاجتماع هو احتفال بإنشاء جامعة دوليةٍ من الأقطار العربية .

وكانت مصر فى شخص هيئاتها الرسمية أكثر إيماناً بضرورة هذا التعاون والتآزر ، بضرورة تكوين جامعة دولية من الأقطار العربية . فما الذى سيلده الغد ؟ وكيف نخلق أواصر هذه الوحدة ؟ وهل إيمان مصر بمصريتها يحول دون إيمانها بالوحدة العربية ؟

قبل الجواب عن هذه الأسئلة ، نريد أن نتساءل : هل « الوحدة العربية » موجودة ؟ وهل هى حقيقة قائمة حتى تفكر مصر فى الانضمام إليها ، أو لا تزال فكرة فى ضمير الغيب ؟

فى الواقع ، أن بين بلاد الشرق العربى اليوم تجاوباً فكرياً وثيق الاتصال . وهذا التجاوب هو من الوسائل الممهدة لخلق هذه الجبهة التى يؤمن بها أناس وينكرها آخرون . فالمصرىّ مثلاً غير مؤمن بهذه « الإمبراطورية » التى يراها العراقى قريبة المنال ، سهلة التحقيق فيما إذا تضافرت جهود العرب جهاداً صادقاً على خلقها ، وما نقوله فى العراقى نقوله فى الفلسطينى والحجازى والنجدى . . وجميعهم لا يجهلون العقبات الكأداء التى تحول دون تحقيق هذا الحلم الذهبىّ ، ولكن إيمانهم بالفكرة هو الذى يجعلهم أكثر انسياقاً للعمل فى هذا الميدان من المصرىّ .

وسرّ ذلك أن مفهوم الفكرة فى مصر لا يزال غامضاً . وقد أشار أحد كبار الكتاب السياسيين إلى هذا الغموض بقوله : « . . . أمّا البيئة التى تسير فيها فكرة [العربية وجبهة شعوب العربية] سيراً عجباً لا يستقر على حال ويجمع بين متناقض الاتجاهات ومتقابل التيارات فهى البيئة المصرية ، وقد ظلّت هذه البيئة حقبة طويلة تتعالى فيها صيحات إسلامية وصيحات شرقية مختلفة . أما الصيحة العربية التى تؤدى إلى تكوين الجامعة الكبرى فلم نسمعها إلاّ منذ عهد جدّ قريب . . أى حين تفاقم الخطر على فلسطين العربية بسبب الكارثة الصهيونية .

وحجة المصرى فى هذا الانقباض أن أكثر البلدان العربية لم تملك أمرها بعد ، ومن الصعب فى نظرها أن تنتظم هذه الأقطار فى وحدة عربية شاملة أو حلف سياسى جامع قبل أن ترفرف راية السيادة على ربوعها . وهذا الاتجاه جدُّ مخالفٍ لاتجاه السوريين والعراقيين الذين يرون انفصام عرى هذه البلاد ، ووقوعها تحت سيطرة الأجنبى ، والتطام سيادتها بسيادته ، من أقوى العوامل لتعزيز هذه الفكرة تحت تيار البعث القومى الذى يكون توطئة لجمع الشمل . . ويعززون هذا الرأى بقولهم : « إن البلاد العربية من المحيط الأطلسى إلى الخليج الفارسى ، ومن جبال طوروس إلى المحيط الهندى تنتظمها وحدة إقليمية شاملة ، وتربطها روابط تاريخية وثيقة ووشائج دينية ولغوية أوثق ، وتحسّ إحساساً مشتركاً للتخلص من الكابوس السياسى الذى ترزح تحته . إذن . . فلماذا لا نعمل على خلق « الجامعة العربية » والعوامل متوافرةٌ بقوةٍ لهذا الخلق ؟ هذا هو اتجاه السوريين والعراقيين » . . وكأنما مصر قد أخذت تنصت إلى هذه البواعث والاتجاهات بكثير من التفكر ، وهذا الذى جعل انقباضها عن « العروبة » يذوب تحت ضغط الحوادث ، وأصبحت فكرة انضمامها إلى « الجامعة العربية » أكثر وضوحًا لدى المصرىّ من قبل .

لقد ألمعنا فى صدر كلامنا إلى أن مصر غير غريبة عن فكرة « الجامعة العربية » ، وأن احتضانها الآن للفكرة معناه رجوعها إلى مبدإ رسَم خطوطه الأولى مؤسس الحكومة المصرية قبل قرن كامل . ولمصر اليوم ثروتها الضخمة ونفوذها الأدبىّ ومركزها الدينىّ والكثير من خصائصها مما يجعلها تكون فى طليعة الداعين إلى هذه الفكرة ، المؤمنين بفوائدها ، لأن تحقيقها — ولا سيما فى هذا العصر الذى تتصارع فيه المطامع الصارخة بشكل مخيف — أصبح من الضرورات اللازمة ، لا لمصر فحسب بل لكل قطر عربىّ . ومصر فى موقفها الدولى الخطير ، وبما يتهدد حدودها من أخطار ، أصبحت تشعر أكثر من غيرها بضرورة خلق هذه الجامعة الكبرى ، لتردّ عنها كل غارة من غارات المطامع .

وقد أوضح الأستاذ محمود عزمى هذه الضرورة بقوله[1] :

« والاعتبار العام هو أن مصلحة شعوب العربية جميعاً تقضى بتأليف جبهتها ضرورة ملحّة لأجل الدفاع عن كيانها ، لا ترفاً نافلاً إرضاءً لعاطفةٍ أو استجابة لشعور كامن . ولغة المصالح هى لغة

---

(١) من مقال له عنوانه : « جبهة من شعوب العربية » نشر فى هلال نوفمبر سنة ١٩٣٨ .

هـذه الأيام . ودافع المصالح هو أقوى الدوافع على السعى والتحقيق . فيجب أن تقوم الدعاية للجبهة على أساس إقناع أهل الرأى فى أقطارها بأن وجود الجبهة لازم لاستقلال كل واحد من هـذه الأقطار بل لكيانه . وهى واقعة فى طريق الفتوحات السياسية والاقتصادية ، بل هى محلّ هذه الفتوحات بالذات . بينما هى تكوّن وحدة جغرافية واقتصادية لا مثيل لها من حيث التفاعل والتكامل والتساند . فيها مختلف الأجواء ، ويروى أرضها أغزر الأنهار ، وفيها السهول والبطاح ، والهضاب والجبال ، وفى بطون أرضها أنواع المعادن والزيوت ، وهى إلى هـذا كله كتلة متصلة لا يفصل بينها فاصل . والعالم الآن عالم تكاثر . وكل قطر من أقطار العربية صغير بذاته ، إذ لا يزيد عدد سكان أكثرها أهلا على ستة عشر مليوناً ، بينما يحيط بها أو يطمع فيها من البلاد ما لا يقل عدد السكان فيه عن العشرين مليوناً . ولكنها إذا اجتمعت أو كوّنت من أجزائها كتلة يبلغ سكانها الثمانين مليوناً يحولون بعددهم وبما يستطيعون من ثقافة وقوة دون أن يطمع فيهم طامع أو يغير عليهم مغير . وها هى ذى مصر تخشى أن يقوم نزاع دولىّ تهددها الجيوش الإيطالية من ناحية حدودها الغربية ، وها هو ذا العراق قد قامت فيه مشكلة شط العرب وحلت حلاً لا يجمع

أهل العراق على الرضا به ، وها هى ذي سوريا اقتطع منها أخصب ألويتها منذ شهور . . ولو كانت الجبهة العربية مؤلفة لتردد المهددون والمغيرون ، ولحاسبوا أنفسهم مرات ومرّات قبل أن يقدموا على ما يقدمون عليه الآن فى مختلف أطراف بلاد العربية[1] » .

ولا شك أن الأستاذ عزمى ، فى كلمته هذه ، قد صوّر الحوافز السياسية التى تدعو لخلق هذه الجامعة أدق تصوير . على أن الإنصاف يدعونا أن نقول إن مصر لم تقف مكتوفة الأيدى فى هذا الميدان الفسيح ، وإذا كان من جملة الخطط التى يذكرها الكتاب والساسة توطئةً للعمل المقبل هو توحيد برامج التعليم وتوجيه النزعات الثقافية توجيهاً قوميًّا ، فمصر هى صاحبة الفكرة الأولى فى تحقيق هذه الغاية ، وقد كانت إلى عهد غير بعيد — كما قلنا — لا تمد يدها إلى السياسة العربية ، فلما جاءت القضية الفلسطينية كانت فى طليعة الأقطار العربية التى اهتمت لها . ومعنى هذا — والنشاط اليوم على أشده بين الحكومات العربية لتكوين هذه الجامعة — أن مصر لم تعد بعيدة عن هذه الفكرة كل البعد . على أن هذا الاتجاه نحو العروبة قد حفز غير واحد من كبار كتاب مصر أن يتساءلوا : ما لون هذا الاتحاد ؟ وما كنهه ؟

(١) يلاحظ القارئ أن هذه الفقرة مقتطعة من مقال كتب قبل الحرب الحالية

وكيف يكون ؟ ومن يدعو إليه ؟ وهل الدعوة من جانب العرب أنفسهم ، أو هى من بعض الدول الأجنبية التى تعززه لمصالحها ، ولا سيما بعد أن أحسّت بالخطر من دول أجنبية أخرى ؟

أما أن العرب فى جميع أقطارهم ، هم الذين يسعون لهذه الغاية ، فهذا ما لا يشك فيه أحد . أما أن بعض الدول الأجنبية هى التى تروج لفكرة الجامعة العربية فى سبيل مصالحها ، فالجواب عنه أن العرب اليوم من اليقظة الشاملة بحيث أصبحوا يعرفون حق المعرفة أين تلتقى مصالحهم وأين تفترق . وعلى هذا يكون دخول مصر فى الإطار العربى فى صالحها . ولا يمسّ هـذا الانضمام «مصريتها» التى يحرص عليها بعض المفكرين المصريين ، ويخافون أن تذوب فى التيـار العربىّ الجارف . والحقيقة أن « العروبة » لا تنافى « المصرية » أو « الفرعونية » . ويجب أن نكشف الغامض عن هذه القضية التى اختلف فيها الباحثون . فبينا يرى بعض الكتاب فى الشام والعراق أن احتفاظ مصر بمصريتها معناه إيمانها بالفرعونية وتجردها عن العربية ، إذ بنا نرى بعض الكتاب فى مصر يفسرون دخول مصر فى « الجامعة العربية » بالتخلى عن مصريتها . . وكلا الافتراضين خطأ . .

فما هى الفرعونية ؟

هى ألا تقطع مصر الحديثة صلتها بمصر القديمة ! . . وهل تستطيع مصر أن تقطع هذه الصلة الوثيقة ، ولها من ماضيها هذا التراث الضخم الذى يرفع رأسها عالياً بين أسمى الأمم المتحضرة ؟ . فالمصريون القدماء بنوا حضارة فاضت أشعتها على العالم . وهذا ما تسجله صفحات التاريخ وتدلّ عليه الآثار الناطقة . ولكن مصر ، من جهة ثانية ، قد غزتها أمم كثيرة : غزاها الفرس وغزاها الرومان وغزاها العرب وغزاها الترك . وقد تصارعت كل هذه القوى وحاولت أن تمحو مصر الفرعونية فلم تستطع ، وظلّت كما يقول عالم أثرىّ : كالبيضة محاطة بغلاف من الخارج قد لوّن بألوانٍ مختلفةٍ وضعها عليها الفاتحون من الخارج ، ولم يتمكنوا برغم طول الزمن واختلاف الأجناس البشرية التى توالت على حكمها منذ سنة ٥٢٥ ق . م . من تغيير شىء كثير من عاداتها وتقاليدها التى تكونت منذ فجر التاريخ . نعم ، حاول الفرس وحاول الرومان وحاول الترك أن يمحوا مصر الفرعونية فلم يستطيعوا ، ولم يغيرها كرّ الزمان ولا تغلب الدول والشعوب . واستطاع العرب وحدهم بعبقريتهم العجيبة أن ينشروا رسالتهم فى وادى النيل ، فتفاعلت قوى هذه الرسالة التى بشّر بها محمد بن عبد الله ، فخلفت مصر العربية بلغتها ودينها وخصائصها وكل مقوماتها الشخصية .

هذا حق لا ريب فيه . أمّا أن يتعلل بعض الكتاب بأن مصر لا تزال فرعونية الخصائص ، ولا تزال العادات المصرية القديمة باقية إلى الآن ، فهو ضرب من هواجس الأثريين . ومن أطرف ما قرأته لبعضهم حول هذا الموضوع قوله : إن الطفل المصرىّ حينما تسقط سنّ من أسنانه المخلوعة يطلب إلى الشمس — كما يطلب الطفل المصرىّ فى عهد الفراعنة — أن تبدلها له بسنٍّ أحسن منها ، وأن تأخذ منه «سنّ الحمار» وتبدلها «بسن غزال» — والشمس كما لا يخفى من أعظم المعبودات المصرية منذ أقدم العصور التاريخية — ويقول فى معرض الاستدلال على فكرته هذه إن بقايا هذه العبادة لا تزال آثارها فى مصر إلى اليوم . ولكن ما قول الأستاذ الأثرىّ الذى أورد هذه القصة وغيرها من القصص المشابهة لها فى أن عادة ابتهال الطفل إلى الشمس بأن تبدل سنه بسن أخرى لا تزال موجودة فى سورية حتى يومنا هذا ، وربما كانت موجودة فى العراق أيضاً ، وأنها تردد بنفس الصيغة التى تردد فى مصر ، مع أنها لا تعدو أن تكون خرافة من الخرافات الشائعة بين الأمم دون أن يمكن تحديد مصدرها الأصلى ! وبعد ، فلا أدرى لماذا نتمسك بمصرية المتاحف وننكر هذه الحقائق التى أبدعها العرب والتى وحّدت بيننا لغة وعقيدة وميولا ؟ . .

إن السورىّ حين يدافع عن عروبته لا ينكر سوريته، وكذلك العراقىّ واللبنانىّ والحجازىّ. وهكذا يجب أن يكون الحال فى مصر، فإن دفاعها عن العروبة وانتظامها فى المجموعة العربية لا يجردها من «مصريتها». هذا ما نقوله لإخواننا المصريين. أما الكلمة التى نريد أن نوجهها إلى إخواننا السوريين والعراقيين الذين يفسرون «الفرعونية» تفسيراً مغلوطاً فيه، فهى أن ارتباط مصر بماضيها واحتفاظها بتراثها القديم ليس معناه تنكرها للعروبة وتخليّها عن لغة القرآن. كلا! فإن التفكير فى هذا الموضوع هو ضرب من الخيال، وهو تفسير مغلوط فيه، وإلى هذا أشار الأستاذ إسماعيل مظهر بقوله:

«لقد قطعنا صلتنا بمصر القديمة: مصر الأهرام والهياكل واللغة الهيروغليفية، وانبتّت صلتنا بمصر الفارسية والرومانية، وعقدنا أواصر العلاقة بمصر العربية الشرقية. مصر المساجد والزوايا والمآذن، والثقافة العربية على جملة من القول. فلسنا نعرف اليوم «آمون» ولا «رع» ولا «هوروس» ولا «إيزيس» بل نعرف «الله الواحد الأحد» ونعرف «كتابه المنزل، على نبيه المرسل» ولسنا نعرف الخط المسمارى ولا اللغة القديمة، بل نعرف الحروف الهجائية واللغة العربية وآداب اللغة العربية، فنحن فى أغوارٍ من المدنية

العربية لن يمكن أن تتخلص منها أو أن ندعى حقًّا أو باطلاً أن فى مستطاعنا أن نغرس بذور ثقافة أو حضارة مصرية بحتة تقطع صلتنا بهذه الحضارة ، اللهم إلاَّ بمعجزة كمعجزة العرب فى تعريب الأمم التى غزتها فى ثمانين عاماً من عمر الدنيا الطويل » .

وأوضح الدكتور طه حسين رأيه الصريح حول هذا الموضوع فقال :

« . . فليكن رأيى فى ذلك واضحًا جليًّا أيضاً ، وهو فيما أعتقد رأى المصريين جميعاً لا يختلفون فيه ، فمصر حريصة على تاريخها كله ، لا تنزل منه عن قليل أو كثير . وهى إذا حرصت على تاريخها الفرعونىّ لا تريد أن تعود إلى دين الفراعنة ، فهذا سخف . ولا تريد أن تتكلم اللغة المصرية القديمة مكان اللغة العربية ، فهذا سخف أيضاً . ولا تريد أن تصطنع الحكم الفرعونىّ مكان نظمها الديموقراطية الحديثة ، فهذا سخف أيضاً . وإنما تريد أن تنظر إلى هذا التاريخ بما كان فيه من خير وشرّ على أنه جزء من حياتها ، ومقوّم لوحدتها ، ومكوّن لوطنيتها ، تفخر بما يدعو منه إلى الفخر ، وتألم بما يدعو منه إلى الألم ، وتعتبر بما يثير منه العبرة ، وتنتفع بما يمكن أن يكون مصدرًا للنفع ، وتحيى منه ما كان صالحاً ومستطيعاً للحياة » .

وبعد ، فنحسب أن « الفكرة الفرعونية » أصبحت من الجلاء بحيث لا تحتاج إلى إيضاح أكثر من هذا ، ولا تحتاج إلى أن يتخوّف السوريون والعراقيون من خطرها كلما تحدث المصريون عن تاريخهم القديم. كما أن « الفكرة العربية » أصبحت من الوضوح بحيث يجب ألّا يتخوفها المصرىّ ، وبذلك نخرج من هذه المقدمات إلى أن مصر لن تكون بعيدة عن فكرة « الوحدة العربية » التى يعمل على خلقها ساسة العرب وكتابهم . ومَنْ يدرى ؟ فقد تزعم مصر على هذه الحركة السياسية الجديدة ، إن لم يكن اليوم فغدًا ، وقد يحقق الملك الشابّ البرنامج الخطير الذى رسم خطوطه الأولى قبل قرن جدُّه العظيم مؤسس مصر الحديثة . وما ذلك بالأمر الخطير ، ولا سيما بعد هذه الظواهر العربية التى لمعت أشعتها فى جوّ مصر ولا تزال تلمع إلى الآن .

موقف الشباب
من النزعات التجديدية

« لا تتعصبوا للقديم فينسيكم فضل الجديد ، ولا تتعصبوا للجديد فتأخذوه بترابه وتبره وأنتم تحسبون ترابه تبراً ! فإذا دعوناكم إلى اقتباس بعض النظم الغربية التى يضطرنا إليها تنازع البقاء ولا تنافى جمال ماضينا ، فذلك لأننا نريد أن نسلحكم بسلاح تقفون به أقوياء بجانب القوى . مرحباً بالجديد إذا كان لنا فيه عزة ومنعة وقوة . وسحقاً لهذا الجديد إذا ضيع علينا ميراث الآباء من كرم وحياء ومروءة وصدق وإيمان بالله »

منصور فهمى

ما موقف شباب العرب من النزعات التجديدية ؟

قبل الجواب عن ذلك نتساءل : ما القديم ؟ وما الجديد ؟

وهل ثمة جواب صريح يمكن أن يطوى هذين السؤالين بكلمةٍ حاسمة ؟

نريد أن نقول : « لا » ، وفى وسعنا أن نقول « نعم » . ومن الخير أن نتخطّى الاستطرادات لنترك لظواهر الأحداث أن تجيبنا عنه جواباً بليغاً .

ولنأخذ أقرب الأمثلة للتدليل على ظواهر هذا النضال ، ولتكن أمثلتنا من جوانب التاريخ ، ومن هـذه الملابسات التى أعقبت الحرب الكبرى . . . فمنذ عشر سنوات أو أكثر[1] . . أى منذ انطوت صفحة الحرب الكبرى بحسناتها وسيئاتها ، رأينا فى العالم كله ، لا فى الشرق فقط ، تغيراً محسوساً فى شكل الحياة ، وميول الجماعات . . وكأنما هذا « الاتزان » الذى كان يسود العالم فى سائر بيئاته قد اختلّت حركته بعض الخلل . . ولا نقول إنه انقلب إلى « الفوضى » بل نقول إن الخصائص الخلقية التى كانت كمينة فى النفوس إلى حدّ ما قد انطلقت فى آفاقٍ غير محدودةٍ تتمتع بفيض الحرية ونعيمها المزدهر . .

وهذا التحرر بل هذا الانطلاق الذى هضمته بعض الأمم أو كادت ، ووقف شجًى فى حلوق بعضها ، فأقعدها عن السير

---

(١) كتبت هذه الخواطر سنة ١٩٣٣ ، وقد أبقيت على حالها ، مع تعديل طفيف ، لأنها تصور الحالة الفكرية خلال هذه الفترة التى سبقت الحرب العالمية الحالية تصويراً قريباً من الواقع

والتقدم — هو الذى يميّز بين أمة وأمة . . وبديهى أن يعتبر الشعب الوهن الضعيف الذى لا يقوى على السير ، ولا تهضم معدته التطور ، ولا يستطيع أن يجارى عصر السرعة فى كل اتجاهاته — بديهى أن يعتبر شعباً « قديم » النزعة بالنسبة إلى الذى ارتضى « التطور » وجعل الوثب ديدنه فى كل شىء . .

ومن هنا نستطيع أن نتلمّس الفروق بين « القديم » و « الجديد » ، وبين أمة وكلة ضعيفة تريد أن تكون محافظةً فى كلِّ شىء . . وأمة يقظةٍ نشيطة تريد أن تجدد كل شىء يمسُّ مظاهر الحياة . .

ويحدثنا التاريخ أن لنهضة كل أمة قصة طويلة تنطوى فصولها على فتراتٍ تكون فيها محافظة ، ثم تضطر بحكم امتزاجها بغيرها من الأمم أن تثور باتئاد على بعض عاداتها ، وأن تجدد مضطرة بعض هذه العادات التى تعوق سير تقدمها . . وما تزال حتى تتلمس النور على وضحٍ من النهج القويم .

وبمهلة قصيرة عند هذا العراك الذى قام بين العقائد والديانات قبل ألفى سنة مثلاً تبدو لنا ألوان حية من الخصومة بين القديم والجديد . . كان العالم القديم يعيش على ديانات من صميم الأساطير فلما ظهرت اليهودية وأعقبتها النصرانية قام الناس يحاربونها بكل

ما لديهم من قوة . . « لقد كانت اليهودية رسالة جديدة بالنسبة إلى طبيعة الديانات الوثنية القديمة . . وجاءت النصرانية بعدها، فكانت أشدّ مخالفة من اليهودية لطبيعة الوثنية ولطبيعة السياسة التى كانت تقضى على الشعب أن يعتبر السلطان خليفة الله فى أرضه . ومرت فترة من فترات التاريخ قام بعدها النبى الكريم محمد بدعوته، وإذ قام بدعوته الواضحة ورسالته العليا نبذه قومه وحاربه المشركون، ورأوا فى الإجابة إلى دين الله خروجًا على القديم وكراهية لأن يعبدوا مالم يكن يعبده آباؤهم .

هذه أمثلة واضحة يذكرها كل إنسانٍ اطلع اطلاعاً عارضاً على تاريخ الديانات ونشأة العقائد ، وقد مررنا بها مروراً سريعاً ، وفى وسعنا القول بأن هذه الأمثلة قد تجددت على تعاقب الأجيال . . ولا يتسع المجال لنروى عشرات الأمثلة على هذه النزعات التى تنبثق فى كل عصر من أعماق فئةٍ من المفكرين الأحرار يعملون على تحرير أمتهم . نعم ؛ فى مثل هذه الحالات نسمع صيحات الأحرار المجدِّدين الذين يعملون على إيقاظ الشعور وتنبيه الخامدين، لكيلا تصبح الأمة طعمة أمةٍ غيرها فى كل مظهر من مظاهر الحياة .

ولقد انبثقت روح التجديد فى الأمة العربية منذ نصف جيل أو أكثر، حين ارتفعت أصوات الأحرار بالثورة على الظلم ،

وبفهم روح الإسلام على حقيقته وتخريج مذاهبه بما يلائم روح هذا العصر فى تطوّراته ونزعاته الحرَّة .

هنا ثار الأقدمون من رجالات الحكم فى ذلك الدور المظلم ، وأخذوا يصورون هؤلاء الأحرار للدهماء بأنهم آلات هدم وتخريب فى كيان الدولة وفى أسس الإسلام

كان صوت الحرية يرعبهم رعباً شديداً ، لأنه ثورة منظمة على أسس الظلم وعلى هذا الغنم الكبير الذى يستأثر به أفراد فى سبيل لذاذاتهم المنكرة . . وثورة التجديد اليوم هى ثورة الحرية بالأمس . كانت ثورة الأمس على الظلم والاستبداد ، فأصبحت ثورة اليوم عليهما وعلى الجهالات والتقاليد ، وعلى الذل والاستكانة والخنوع ، وعلى كل ما يغلّ الفكر ويضعه فى سلسلة محكمة من الأصفاد ، والذين يحاربون التجديد وأريد الذين يحاربونه باسم الدين أحياناً ، يحاربون هذه الروح القوية التى تريد أن تنزع عن الشرق الكثير مما علق بنفس أبنائه وبكيان جماعاته من خمول العهد الماضى وذله المكين ! .

ونستطيع أن نخرج من هذا التدليل على أن عناصر التجديد تقوم فى كل نهضة حية على المبادئ الآتية :

ثورة العـــلم على الجهـل
ثورة الحرية على الظـــلم
ثورة الحركة على الجمـود
ثورة النظام على الفوضى
ثورة السيادة على العبودية
ثورة الإيمان على الوثنيـة
ثورة الهدى على الضلال

وبالتالى انقضاء عهدٍ مظلمٍ آسنٍ ، وانبثاق فجر جديد لامع فى حياة الأمة وتطوّرها .

واستفاق الشرق على هذه المبادئ القويمة ، ولا سيما بعد الحرب الـكبرى ، ورأى أن عزلته وانزواءه وعدم احتكاكه بالغرب وعدم أخذه بمبادئ الحضارة الراهنة ، مما يضعضع كيانه ويجعله ذليلاً مستكيناً بل مستعبدًا للغرب فى جميع مظاهره السياسية والاجتماعية والأدبية . ووقف قادته ودعاة الإصلاح فيه يبحثون هذا الامتزاج ، وهل هو يضر الشرق أو يفيده ؟ هل نقتصر على خصائصنا القومية وهذه القوى الـكمينة فى نفوسنا ؟ أو علينا ، مع احتفاظنا بهذه الخصائص ، أن نأخذ أساليب الغرب وأساليب كل أمة قد التمست هذه الحياة الجديدة التى نلتمسها نحن ؟

وانتهى بهم الأمر إلى أن ليس فى اتخاذ أساليب الغرب ما يعوق نهوضنا أو يمس خصائصنا القومية، بل الأمر بالعكس، فقد ظهر لهم أن تلك الاساليب هى الأسس الصحيحة التى يجب أن ترتكز عليها نهضتنا، ومشى الشرق بروحه القوية ونزعاته الحرة على منهج الغرب، وكان من أثر ذلك أن اصطدمت بعض البيئات الشرقية بل أكثرها بأعداء الاصلاح وبهذه الجموع الكثيفة — جموع الجهالات وعناصر الرجعية — تحركها يد السياسة على الأكثر، لتضرب رجالات الإصلاح الذين يحاولون أن ينقذوا الشرق مما هو فيه، ليكون سيّد نفسه وليستعيد مكانته السامية التى كانت له فى ماضيات أيامه.

ولا يزال الصراع قوياً بين الفئات المجددة وبين الرجعيين: الشباب المفكر فى جبهة، والمتزمتون وبقية العناصر الجاهلة فى جبهة أخرى.

* * *

والنزعات التجديدية التى تغمر الشرق العربىّ فى يومنا هذا، والتى يحمل الشباب ألويتها.. هى دعوة صريحة ورسالة واضحة لا غموض فيها ولا التواء..

ينادى الشباب أن دعوتنا قائمة على هضم حضارة الغرب

لفهم حضارة الشرق . . وإننا إذ نحاول هضم هذه الحضارة لا نلتمس قشورها بل لبابها ، ولا يهمنا عَرَضها بل جوهرها ، ومعنى هضم لباب هذه الحضارة التى تعبتْ أقوى الأدمغة فى خلقها والتى هى عصارة الحضارات القديمة — معنى ذلك انتصارنا فى ميدان الحياة واستعادة هذا الماضى الذهبى ، وبعث مخلَّفات السلف المطمورة تحت ركام من سجوف الجهالات وظلمات التقاليد الكثيفة . . ومن الغريب أن ترتفع إزاء هذه الصيحات المخلصة صيحات منكرة تنادى بأن هذه المحاولات ليست إلَّا نتيجة حتمية لانهيار صرح الأخلاق وتزعزع العقائد وتلاشى خصائص الشرق فى إباحية الغرب ! . .

وكأنما طابع هذه النزعات التجديدية التى تواجهنا ونواجهها ، والتى يخاف مظاهرها أكثرنا ويعبّ من رحيقها بعضنا ، كأنما هذه النزعات لغز مبهم غير واضح الجوانب ، حتى لنرى الكثيرين من ضيق الفكر يفترضون فى أمرها افتراضات سلبية ، فينظرون إلى ما تفيضه من نعيم كأنه رجس من عمل الشيطان . فيبتعدون عنها ويداخلهم الريب فى ظواهرها وخفاياها ، ويأسون هذا اليأس القاتم الذى يطبع على جموعهم سمات الموت فيلبسون ثوب الحياة وما هم بأحياء ! .

لا سبيل إلى نهوض الشرق قبل ازدراد حضارة الغرب وهضمها هضمًا جيدًا .

هذه هى رسالة الشباب التى يخافها جموع الرجعيين الذين ينكرون مبدأ الحياة ويقنعون بخيالات العصور الوسطى !

وتشتد ثورة النضال بين هاتين الفكرتين ، بل قد اشتدت وطغتْ . . ولكن لمن الغلبة ؟ لا شك أنها للشباب المؤمنين برسالة الحياة . لأنهم إذ يقدرون نزعات العصر وخصائص التطوّر واتجاهات الرقى والنهوض ، يعملون فى سبيل تحرير الشرق من عبوديته لينعم بحريته المفقودة . وهذا الذى يدعونا أن نشد أزر هذه العناصر فى كل محاولة يقومون بها ما دامت منبثقة من صميم الحق ، ولا يقصد منها غير تحرير الشرق سياسيًا واقتصاديًا . . وإذ يصل الشرق العربىّ إلى هذه المرحلة ستتجه إليه البشرية لترى أىّ دور سيلعبه على مسرح الكون ؟ هل تكون حضارته حضارة المستقبل التى ستنقذ العالم مما فيه من آلام وأوجاع ، وما يشكوه من صراع إثر صراع ؟ . أى هل يتاح له تجديد تلك الرسالات التى غمرت البشرية قبل آلاف السنين حينما قام الرسل بدعواتهم لتضميد جراحات البشرية الدامية ؟ وإذ يصل إلى هذه الساعة الحاسمة من تاريخه الحديث ، هل يمد

يده إلى الغرب مصافحا ليتعاونا على إسعاد الكون ؟ وأخيرًا هل بالتماع نجم الشرق مرة ثانية وازدهار حضارته تنهار حضارة الغرب وتتلاشى على صخرة هـذا التفسخ الخلقى الذى يشير إليه بعض فلاسفة الغرب منذ أعوام غير قليلة[1].

أسئلة تمرّ بالخاطر وليس لأحد أن يتكهّن بأجوبتها تكهنًا حتميًا . وليكن مصيرها فى ضمير الغيب ، ولكن أما ونحن أمام تطوّر كبير فى كل ظواهر الحياة ، أما ونحن أمام تطوّر حتى فى ذهنية الغرب ووجهة نظره إلى الشرق ، أما ونحن إزاء هذا التطور المحسوس أفليس الواجب يقضى علينا أن نوجّه سيرنا فى الطريق التى سلكها غيرنا من الأمم لنبلغ أسمى أمانينا ونتخلص من الأصفاد المحيطة بنا ؟

كان الشرق إلى عهد غير بعيد مجهولاً من الغرب ، كان ينظر إليه نظر العملاق إلى القزم ، ونظر الرجل المفتول العضلات إلى دمية صغيرة . . بل كانت نظرة الغربى إلى الشرقى نظرة مَنْ بلغ أعلى طبقة فى السماء إلى أناس يضربون فى الطبقة الدنيا من الأرض . وقد تكون هذه النظرة الضيقة هى التى أوحت إلى

---

(١) يعتقد ماكس نورداو أن المدنية الأوربية قد وصلت إلى المرحلة الأخيرة التى يصيبها الانحلال ويتلوها الهدم والفناء

شاعر الامبراطورية كيپلنك أن يرسل كلمته التى رددتها الآفاق :

« الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا »

ومرت أيام وامتزج الغرب بالشرق ، درس نفسيته ونفذ إلى أعماقه ، عرف بعض ما يخفى وما يظهر ، ما يكنّ وما يضمر ، فاذا بالنظرة تتحول من ازدراء الشىء إلى احترامه بمقدار ، ومن محاولة ابتلاعه إلى الحذر منه والخوف من يقظته ! وإذا بنا نسمع أصواتاً تخالف ذلك الصوت كل المخالفة . وإذا بروح الأديب تتعالى على روح الشاعر . . وإذا بنا نسمع الأديب البلجيكى ميترلنك يقول إن الشرق والغرب أشبه بفصين من فصوص الدماغ :

الواحد مركز العقل والعلم والوجدان

والآخر مركز الروح والدين والعقل الباطن

الواحد يبحث فيما يستطيع أن يحد ويفهم

والآخر فى غير المحدود وغير المعلوم

وهنا يصرخ هذا الأديب العميق : « لقد حاولا غير مرة أن يتداخلا وأن يعملا معاً . ولكن الفص الغربىّ شلّ مساعى الآخر ومحا أثره . ولقد آن الأوان لتجديد الفص الشرقىّ المشلول » .

وإذ نسمع هذا الصوت نرى فئة من أعلام التفكير الغربى تشك فى قيمة الحضارة الآلية وترى « أن المدنية الصناعية كانت

مهداً قوياً لغلّ الإرادة الانسانية وتضييق دائرة الخيال المخترع لأنها تزج الإنسان فى سلك النظام الآلى ، وتحوّل جهوده ونشاطه إلى شرّ عادات وغرائز ، وتسقط إنسانيته الحرة المريدة المطلقة إلى درك الحيوانية المحكومة بغرائزها وعاداتها وظروفها » وترى هذه الفئة أن الغرب اليوم يئن تحت أثقال هذه المادية التى تشوب جمال حضارته ، وتظهره كمن يعيش فى مغارة مظلمة مسدودة النوافذ يشكو هذا الضيق من مشكلاته السياسية والاقتصادية — هذه المشكلات التى هزته هزاً عنيفاً ؛ وإذا بنا نسمع أوسوالد شپنگلر يدوّى صوته فى قلب أوربا دوياً مرعباً ، وإذا به يرى أن مقارنة الحضارات بعضها ببعض قد دلّته على أن الحضارة الغربية قد بلغت سن الشيخوخة . . وأن ساعة القضاء حمّت ودقّت — ذلك القضاء المبرم الذى يعتبر من الجهل أن يعصى . . وإذ يصف التاريخ بأنه قيام المدنيات وسقوطها فى أدوار تكاد تعيّن بالدقة يقول : إن مدنيتنا — أى المدنية الغربية — تدنو من نهايتها[1] »

---

(١) استطلعت إحدى المجلات السويسرية رأى بعض كبار كتاب الغرب فى مستقبل أوربا ومصير حضارتها ، فأدلى أندره جيد الكاتب الافرنسى بمطالعات سديدة عن مستقبل الشرق وموقف الغرب انتهى إلى أنه يعتقد أننا نرى فى هذا العصر خاتمة دنيا ونهاية ثقافة واحتضار حضارة ، وقد ألمع برأيه هذا إلى مصير الغرب !

ولم يقف الاتجاه الغربى عند هذا الحد، بل رأيناه يزداد إمعاناً فى بحث هذه المشكلات التى تواجهه وتحيط به وتتصل به اتصالا من بعيد، ورأيناه يتطلع إلى آفاق غير هذه الآفاق المملوءة بالسحب والأنواء والعواصف . وإذا بنا نسمع برتراند رسل الفيلسوف المعاصر يصرخ : « إن أوربا تحتاج إلى حضارة جديدة أو حضارة تختلف كل الاختلاف عن حضارتها الحالية »[1] . . فما لون هذه الحضارة ؟ أحضارة الشرق هى أم حضارة ممزوجة من مادية الغرب وروحية الشرق معاً ؟

* * *

إزاء هذه الاتجاهات التى يتّجه إليها أكابر مفكرى الغرب بعد أن كانت أوربا تنظر إلى الشرق بعيون كپلنك وتفكيره المحدود. إزاء هذا التبدل الذى أملته يقظة الشرق فى السنوات التى تلت الحرب الكبرى ، أليس لنا أن نعرف أين يكون موقفنا فى هذه

(١) برتراند رسل فيلسوف من كبار مفكرى الانكليز ، نشر حديثاً كتاباً أودع فيه آراءه فى المدنية والاجتماع . ومما يقترحه دواء لهناء المجتمع تقويض دعائم العمران الحاضر وتشييد صرح الاجتماع على أسس جديدة ! وفى اعتقاده أن ذلك إذا تم زالت كل دولة تقوم مثلها على العصبية القومية وزالت جميع النظم العلمية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية وحلت محلها نظم أقرب إلى سعادة الانسان وهنائه ، لأنها لا تقوم على أساس العصبية الجنسية ، بل على مبدإ تآخى البشر واعتبارهم جميعاً أمة واحدة ذات مصالح مشتركة لا تدعو إلى التنابذ والتخاصم .

الرقعة الكونية ؟ وإلى أى هـدف يجب أن تتجه أنظارنا ؟ أو ليس من الواجب أن نأخذ للأمر عدته ، وأن ننزع عن عقول أكثرنا هذه الجهالات التى تغلّف موضع التفكير منا ؟

قد يكون أمام الشرق حَمل وقر هذه الرسالة العليا التى تنتظرها البشرية ، وينتظرها الشرق والغرب معاً . فهل فى وسع أبنائه أن يحملوا هذا الوقر الكبير قبل أن يأخذوا للأمر عدته ، وقبل أن تنضج شعوبه على هدى العلم اليقينى ، وضوء الإيمان بحرية الفكر ؟ . نعم ، إن أولى واجباتنا أن نقوّى كل ذرة تنبض فى مجموعة الدورة الدموية من كياننا الاجتماعىّ . . وإذ نقوّى فينا هذه العناصر على أسس التفكير الغربى ، نعود إلى مجموع حضارتنا القديمة نستخلص منها أصفى ما فيها من كنوز لنجتاز مراحل الفلسفة الغيبية إلى الفلسفة الواقعية التى تواجه الحياة وتزنها بمعيار الواقع . وعندئذٍ نطل من كوّتنا الضيقة ، من شرقنا الواسع ذى الخصائص المشرقة ، لنلعب الدور الكبير فى تاريخ البشرية .

ولكن متى نصل إلى هذا الدور ؟

قد يكون أمامنا عشرات السنين ومئاتها ، وليست مئات السنين شيئاً يذكر فى عمر الشعوب ، بله فى عمر البشرية . . إذن فما دمنا قد رسمنا الطريق . . وما دامت زمر الشباب هى التى

تخطو خطواتها التجديدية الجريئة ، فما علينا إلّا أن نسير وراء هذه الزمر الحية غير مترددين ولا وجلين لنصل إلى القمة العليا . نعم ، إن جموع الشباب هى التى تحس بهذه الاتجاهات . . وهى التى تشعر بواجبها نحو المستقبل، وتستعدّ لحمل الرسالة ، للتضحية وبذل المهج الغالية . وهذا الذى يهيب بنا أن نرسل الصيحة تلو الصيحة فى أذن الشباب — هذا العنصر الحى الذى يستجيب لنداء الحرية ، وللنزعات التجديدية ، فيندفع بإيمان وإخلاص ، ويشعر شعوراً قويًّا بأن لكل عصر خصائصه وألوانه . وما علينا إلّا أن نزدرد خصائص هذا العصر ، لكيلا نظلّ « غيبيين » فى عصر ترتكز حضارته على « الواقعية » ، وأن نتجه إلى تطورات المستقبل لا إلى خيالات الماضى .

إيمان

« نحن نريد أن ننشىء جيلا جديداً يفهم واجبه
ويعمل للمستقبل كما عمل الأجداد »

الملك فيصل

آمنتُ بالفكر قوة أزلية لها مقامها السامق المشعّ .
وبالحرية هناءةً من الهناءات .
وبالحب ينبوعًا عذبًا يطهر القلوب من الأدران .
آمنتُ بهذه العناصر التى ما هَدَفت إليها أمة وآمنتْ بها إيمان الواثق المطمئن إلاّ بلغت أسمى الغايات .

* * *

خرج العرب من جزيرتهم وهم خلو إلاّ من الشوق . . . الشوق الشعرى الممزوج بالإيمان العميق . . . ففى واحاتٍ من الأمل ، وفى صحراوات من الحب واليقين ، وعلى أهازيج الحرية ووهجها الدامى رسموا لأنفسهم أبلغ طرق المجد . وما هى إلا غفوة

من غفوات الكون حتى خلقوا بمعجزة كبرى إمبراطورية مترامية الأطراف ، ومدنية فذة عاشت وستعيش مدى الأزمان .

* * *

كم يعوز العرب فى يقظتهم هذه إيمان أسلافهم الأولين ، ذلك الإيمان « الخام » ، البدائى ، غير المصقول بسنا العلم وبريق الحضارات .

* * *

يعيش الانسان فى أغوار ماضيه أكثر مما يعيش فى صميم حاضره . . ولكن هل علمتَ أيها العائش فى متع الأحلام أن الذى يعيش فى أغوار الماضى الآسن المنقبض المتخاذل يظل آسناً منقبضًا متخاذلاً ؟

* * *

إن الماضى قوة خفية لإبداع مستقبلٍ أجمل وأبدع وأكثر حيويةً من الحاضر اليقظ ، ولكن كيف نستغل ماضينا الخالق المبدع ذا الدفقات المشعّة فى شتى ميادين الفكر ؟

هنا السرّ !

إن تمسكنا بمجد ماضينا لا ينبغى أن يصرفنا عن حاضرنا المتفاعل . أمّا إذا آثرنا الغيبيات المعتمة على اليقين المشرق فكأننا

أشباه أموات من الأحياء . أو إذا أردنا الدقة ، فأشباه تماثيل كابية بدون حراك على حين يسير العالم إلى الأمام بمثل السرعة التى تنطلق فيها الأسهم من فم « الصواريخ » !

✲ ✲ ✲

ما هى رسالة العربى فى هذا العصر ؟

رسالته : الخلق والإبداع — خلق كيانه المفقود توطئةً للابداع .

وليستطيع أن يعمل ما عمله العرب الأقدمون فى تاريخ الفكر الإنسانى ، عليه :

أولاً : أن يطَّرح « وثنيات عصور الانحطاط » التى طغتْ على تفكيره فترة ركوده ، والتى كادت تفقده شخصيته ، وترده إلى أغوار الظلمات .

ثانياً : يجب أن تقوم عناصر هذه الرسالة على البعث القومى ، وإحياء الثقافة العربية القديمة إحياءً علمياً ينقّيها من الغيبيات . فقد تكون « الغيبية » مفيدة لعصرٍ ما ولبيئةٍ ما . أما فائدتها للعرب فى هذا العصر فأمر مشكوك فيه . وعلى هذا واجب العربى أن يرتدى من ماضيه الثوب النقى فقط — ذلك الثوب البديع الذى نسجه بفيضٍ من هيامه وشوقه ، من إلهامه وإيمانه ،

فجاء ثوباً غير مبهرج بالزخارف والألوان ، أجمل ما فيه دقة صنعه وبساطته ، ثوباً نقيًّا رائعاً ، اشتهى أن يلبسه كثير من الشعوب — والحضارة ثوب قد يصلح لباساً لكل أمة فيها نزعات الحياة — فلبسوه معجبين مزهوّين فى حقبةٍ غير قليلة من خاليات القرون .

نعم ، واجب العربى اليوم أن يحيي تراثه القديم الضخم ، وأن يعبّ ما استطاع من سلافة هذا العصر ، وأن يخلق من هذا الامتزاج رسالة إنسانية جديدة ، لا لقومٍ دون قوم ، بل للبشرية بمختلف أجناسها ، أو بكلمة أعم للعالم أجمع .

* * *

وبعد . . أفيتاح للعرب أن يمثلوا دورهم فى تاريخ البشرية مرة ثانية ؟ أم جفّ معين حيويتهم ، وخبا فيض إشراقهم ؟ والأمم كالأفراد كما يقول علماء الاجتماع ، تمرّ بما يمرّ به كل كائن حى : ولادة ، فطفولة ، فشباب ، فكهولة ، فشيخوخة ، فموت ؟ . .

ونتساءل قبل أن نرسم خطوط هذا الجواب : هل مرّت الأمة العربية بهذه الأدوار ، أو بالفصل الأخير من رواية هذه الفكرة التى تبدأ بالولادة فالحياة ، وتختتم المأساة بالموت والعدم ؟ . الواقع ، أن شمس الأمة العربية — شمس حياتها الزاخرة بعناصر

القوة والحيوية والشباب ، قد كادت تغرب ، وبالفعل قد دبّ فيها الهرم ، ووقفت طويلاً عند عتبة الشيخوخة تصارع الفناء بحيوية عجيبة وبقوة مَنْ لا يريد أن يموت ، ومرّت بها قرون وهى واقفة بدون حراك ، حتى إذا كشر الموت عن نابيه الأزرقين الحادّين يريد أن يزدردها لقمة سائغة ويطّرحها فى لجج العدم ، استحالت هذه الشيخوخة المتهدمة وهجاً من نور ونار ، ووخزات حادة من شوك وقتاد ، فلم يستطع ذلك الغول أن يطويها كما طوى غيرها من الأمم ، وكأنما هذه المداعبات المؤلمة أو الهزات المرعبة قد أيقظتها بقوة فانفلتت من غمرات السنين وأحداث القرون طفلة جديدة ، تحبو وتلعب ، تقفز وتمر ، وقد تبكى وتصرخ كأن بها جِنة ، وكيف لا تجنّ فرحاً وقد لبست ثوباً جديداً من الحياة ؟ وما هى إلا يقظات من عمر الزمن حتى استقوتْ ، وهى الآن فى جدة الشباب تحاول أن تخطّ فى تاريخ الفكر العربى للمرة الثانية ، صفحات جديدة أشدّ وهجاً وأبهر سنا من صفحتها الأولى .

ومَنْ يخامره الشك فى قيمة هذه الوثبة المنتظرة فما عليه إلا أن يقرأ تاريخ العرب بكثير من الإمعان ، فهم منذ القديم أصحاب معجزات . والله وحده يعلم ما يلده الغد من أعاجيب .

✲ ✲ ✲

شيء واحد يعوزنا للوصول إلى أهدافنا السامية :

الإيمان

الإيمان بقدسية الفكر

الإيمان بقدسية الحب

الإيمان بقدسية الحرية

وهـذا الذى دفع العرب من جزيرتهم الجرداء القاحلة لينشروا رسالتهم السامية على الدنيا .

وهذا الذى يعوزنا فى نهضتنا هذه ، وفى عصرنا هذا .

يطلب من مكتبة العرب
لصاحبها الشيخ يوسف البستانى
٤٧ الفجالة مصر

i14587592
B12949905

DS
39
K3x
1943

الكيالي ، سامي
الفكر العربي

NAME	STATUS
Esraf Gadallah	staff
SEP 3 1979	
Iman Kaffas	78/841

APR - 1976

DS
39
K3x
1943